عزيز نيسين

عاش الوطن!

ترجمة : فاضل لقمان

800 26 60 4222 EB

AXIELL BOOK-IT

دار الجليل

NESIN, AZIZ Hsg

ASH LIL-WATAN

Hsg

NESIN

Asha al-watan!

عاش الوطن

○ عاش الوطن
○ قصص : عزيز نيسن
○ نقلها عن التركية : فاضل لقمان
○ الطبعة الأولى - دمشق ١٩٨٦

○ دار الجليل للطباعة
دمشق - ص.ب ٤٦٤٨ - هاتف ٤١٥٠٨٩

١٩٨٦/٥٠٠٠

عزيز نيسن

عاش الوطن!

نقله عن التركية : فاضل لقمان

دار الجليل

★ قصة حياتي ★

استقر أبي الذي جاء متشرداً وهو في الثالثة عشرة من عمره من احدى قرى الأناضول القصية في استانبول . أمي أيضا جاءت هي الأخرى وهي فتاة صغيرة من قرية أخرى من قرى الأناضول لتستقر في استانبول . ذلك لأن مجيئي الى هذا العالم كان يتطلب منهما أن يقطعا هذه المسافات الطويلة ويلتقيا في استانبول وأن يقترنا أحدهما بالأخرى بعقد الزواج .

لعدم قدرتي على الاختيار ولدت في زمن غير مناسب على الاطلاق : ولدت في أقسى أيام الحرب العالمية الأولى وأكثرها اراقة للدماء .. عام ١٩١٥ ... ولعدم قدرتي مرة أخرى على الاختيار ولدت ليس فقط في وقت غير مناسب بل وفي مكان غير مناسب أيضا ، ولدت في جزيرة « هيبلي آضة » احدى الجزر التي يعيش فيها أغنى

أثرياء تركيا ... ان هذه الجزيرة هي المصيف المفضل لدى الأغنياء . وبما أن الأغنياء لا يستطيعون الاستمرار في الحياة دون وجود الفقراء ، لأنهم بحاجة ماسة الى هؤلاء الفقراء ، فقد كنا نحن أيضا نعيش في هذه الجزيرة .

لا أريد أن أندب حظي حين أقول هذا الكلام . بل على العكس تماما أعتبر نفسي سعيدة سعادة كبيرة لأنني لست ابن واحدة من الأسر العريقة ذات الشهرة الذائعة .

أطلقوا علي اسم : « نصرت » ... والكلمة بالعربية ، كما هي معروفة ، تعني نصر من الله وعون منه . يا له من اسم مناسب لحالنا . فأبوي اللذين لم يكن عندهما أي معقد أمل آخر لأي أمل فقد علقا أملهما على الرب الخالق .

مثلما كان الاسبارطيون يئدون أطفالهم الهزيلين بأيديهم ليوفروا فرص العيش للأقوياء وحدهم فان عملية الانتقاء والاصطفاء هذه تنفذها عندنا الطبيعة والمجتمع . وحين أقول ان أربعة من أشقائي الصغار ماتوا لعجزهم عن تحمل الظروف الصعبة يتضح لكم بسهولة كم أنا صامد وعنيد باصرار ومتعلق بالحياة . ولكن أمي كفت عن الاستمرار في تحمل أعباء الحياة بعد عامها السادس والعشرين وماتت لتترك هذا العالم الجميل الجدير بالحياة لأولئك الصابرين الصامدين .

أوضاع التجار في البلاد الرأسمالية مثلها مثل أوضاع الكتاب في البلاد الاشتراكية جيدة ومزدهرة . هذا يعني أن الشخص الذكي الذي يحسن التصرف يجب أن يصبح كاتبا اذا كان يعيش في أحد

البلاد الاشتراكية وتاجرا اذا كان يعيش في أحد البلاد الرأسمالية . اتضح منذ الصغر أنني سأكون بائسا وشقيا ، لأنني وأنا ما أزال في العاشرة من عمري وفي بلاد تعيش في ظل نظام رأسمالي بالغ التشويه كتركيا ، صممت على أن أصبح كاتبا على الرغم من عدم وجود أي شخص في أسرتي يعرف القراءة والكتابة ...

مع أن أبي ، شأنه شأن كل أب عطوف يفكر بمستقبل ولده ، قال لي مرات ومرات : « دعك من الكتابة وما اليها من التفاهات واتجه نحو عمل مفيد مثل سائر الأعمال المحترمة ، عمل تستطيع منه أن تكسب خبزك » فانه لم يكن باستطاعتي أن أصغي الى هذه النصائح القيمة .

شقائي لم يقف عند هذه الحدود ، ففي حين أردت أن أصبح كاتبا . أي أن أحمل قلما اضطررت الى الانتساب الى مدرسة جعلتني أحمل السلاح بدلا من القلم .

في حياتي عجزت عن القيام بما أردت فضلا عن أنني لم أتعاطف مع ما اضطررت الى القيام به من عمل . أردت أن أغدو كاتبا فأصبحت جنديا . ذلك لأن الطلاب الفقراء في تلك الأيام لم يكونوا يستطيعون متابعة الدراسة في مدارس ليلية دون مقابل الا اذا التحقوا بالمدارس العسكرية هذا ما جعلني أنتسب الى المدرسة العسكرية الليلية المجانية .

صدر قانون « النسبة » عام ١٩٣٤ أوجب على كل مواطن أن يختار لنفسه نسبة ما . وبما أن كل شخص كان حرا في اختيار النسبة التي يريدها فقد برزت الى السطح جميع العقد الدونية التي

يعاني منها الناس . فأبخل الناس في الدنيا أخذوا نسبة « صاحب اليد المبسوطة » لأنفسهم وأكثر الناس جبنا في العالم سارعوا الى أخذ نسبة « البطل » أما أشد الناس كسلا فقد أطلقوا على أسرهم أسماء مثل « الجاد » و « المجتهد » أو « النشيط » . في تلك الأيام أطلق أحد مدرسينا وقد كان عاجزاً عن التوقيع ناهيك عن الكتابة على نفسه اسم : « الكاتب » . ونظرا لأن العرقية كانت منتشرة في تلك الفترة فقد بادر كل أولئك الذين هناك شكوى في أصولهم التركية الى الانقضاض على الأسماء التي تؤكد أنهم من أعرق العائلات التركية الطورانية . ولأنني معتاد على التخلف في كل عمليات السلب والنهب فقد بقيت دونما نسبة ذات رنين اعتز بها ، مما اضطرني لأن أقبل بنسبة « نيسين » أملا في أن أعود الى رشدي وأتذكر من أكون كلما ناداني أحدهم : نيسين ؟ التي تعني « من تكون ؟ » .

أصبحت ضابطا في ١٩٣٧ ، أي أصبحت نابوليونا ... والأصح هو أنني أصبحت واحدا من النابوليونات . ان كل ضابط جديد يتوهم أنه نابليون . ان مرض التوهم بالنابوليونية هذا يدون لدى البعض طوال حياتهم . أما البعض الآخر فيستطيع أن يبرأ من هذا المرض بعد فترة تطول أو تقصر حسب الحالة المرضية . والنابوليونية مرض خطير ينتقل بالعدوى . أما أعراض هذا المرض فنوجزها فيما يلي : ان الذين يصابون بهذا المرض لا يتذكرون الا نجاحات نابليون وانتصاراته ، أما الهزائم التي تعرض لها فلا تخطر ببالهم قط ، انهم مولعون بدس أيديهم اليمنى بين أزرار جاكيتاتهم ، ثم

يبسطون أمامهم خريطة العالم ويرسمون عليها عددا كبيرا من السهام الحمراء حتى يحتلوا العالم كله خلال خمس دقائق وبعد ذلك يشعرون بالكثير من الأسى لأن العالم صغير . ان الذين يعانون من هذا المرض يصابون بالحمى مما يجعلهم يهذون باستمرار . أضف الى ذلك أن هناك مضاعفات أخرى لهذا المرض . فهناك من يبرأ فيما بعد بأن يتوهم بأنه تيمورلنك ، جنكيز خان ، أتيلا ، هانيبال ، مولتكة ، بل وحتى هتلر وغيرهم .

حين كنت ضابطا شابا في الثانية والعشرين والثالثة والعشرين من عمري كنت أحتل العالم عددا من المرات في اليوم الواحد بواسطة الخطوط والسهام الحمراء التي كنت أخطها فوق الخريطة . ولكن معاناتي من هذا المرض النابوليوني لم تدم سوى عام أو اثنين . وحتى خلال اصابتي بالمرض لم أستطع أن أكون ذا ميول فاشية .

منذ أيام الطفولة أردت أن أصبح كاتبا مسرحيا . ولعدم وجود اختصاص كتابة المسرحيات في الجيش مثل اختصاص المشاة ، الخيالة ، المدفعية ، المدرعات فقد بادرت الى البحث عن الطرق المؤدية الى الخروج من الجيش واستطعت تحقيق ذلك في عام ١٩٤٤ . بعض الذين يحتفظون في أعماقهم بالرغبة في أن يصيروا شعراء أو كتابا يبادرون حتى بعد أن يصلوا الى رتب العميد واللواء الى كتابة الدواوين الشعرية أو الروايات فيدهشون الجميع عداهم هم ومقابل ذلك من يدري كم سيفاجأ أمثال هؤلاء العمداء والألوية فيما لو عبر شاعر في الخمسين من عمره رغبة في أن يصبح قائداً

للجيش ؟ .. ألن يعتبروا ذلك نوعا من الجنون والعبث الذي لا يقبل به المنطق : .

بدأت بكتابة القصة وأنا في الجيش . ولأن الرؤساء في تلك الأيام كانوا ينظرون نظرة عداء للعسكريين الذين يكتبون في الصحف فقد وقعت ما كنت أكتبه باسم أبي ، عزيز نيسين ، بدلا من اسمي . وهذا الاسم المستعار الاول غطى اسمي الحقيقي ونسي الناس أن هناك شخصا باسم نصرت نيسين . في تلك الأيام كان القراء يلقبونني بالكاتب الشاب . أما أبي فكان شيخا مسنا ذا لحية بيضاء طويلة . وحين كان يضطر الى مراجعة الدوائر الحكومية ويقول أنه عزيز نيسين فان أحدا لم يكن يصدق أن هذا الشيخ الطاعن في السن هو عزيز نيسين الشاب المعروف، مما كان يؤدي الى وضع العراقيل أمامه . وإلى أن فارق الحياة ظل أبي يكافح في الدوائر الرسمية للبرهان على أنه : عزيز نيسين فعلا .

بعد سنوات ، حين ترجمت كتبي الى اللغات الأجنبية عانيت الكثير للحصول على حقوق التأليف الواردة من هناك باسم عزيز نيسين ، فيما أن اسمي في الهوية هو نصرت فقد جاء دوري الآن لان أكافح من أجل أن أبرهن على أن عزيز نيسين هو أنا وليس أحدا غيري .

كالعديد من الكتاب بدأت الكتابة بالشعر . خلال اضرابه عن الطعام نصحني ناظم حكمت بترك الشعر الذي لا أجيده والاقتصار على كتابة القصة والرواية . فهمت من هذا الكلام في ذلك الوقت أن ناظم يغار مني . وان كنت أزعم بأن سبب تركي للشعر هو أنه في

تركيا ، لا يطعم خبزا فان حقيقة الأمر هي أنني تركت الشعر بسبب الاحترام الذي أكنه له . معظم الذين ارتفعوا بشكل أو بآخر الى مستوى الشعراء في أيامنا هذه يؤكدون لي صحة قناعتي بأنهم لا يكتبون الشعر الا لأنهم لا يحترمونه . مؤمن أنا بأن الشعر فن عظيم ، اضطر العديد الى أن يصبحوا كتابا كبارا ومشهورين لأنهم لم يستطيعوا أن يصبحوا شعراء . لا أقول هذا الكلام عني شخصيا لانني نجحت نجاحا باهرا في هذا الميدان وذلك عن طريق تبيان مدى عمق الهوة التي يمكن أن تنحدر اليها كتابة الشعر . ان السبب الكامن وراء هذا الاهتمام الواسع بأشعاري المنشورة ما هو الا لأنها مذيلة بتوقيع اسم امرأة . فما أن صدر ديواني وهو يحمل اسم امرأة حتى تدفق على هذا الاسم النسائي سيل هائل من الرسائل الغرامية .

منذ أيام الطفولة حلمت بكتابة المواد القادرة على ابكاء الناس . وذات مرة أخذت قصة كتبتها بهدف تحقيق هذا الحلم الى احدى المجلات . لأن رئيس التحرير الذي قرأ قصتي عديم الفهم أطلق الرجل ضحكات مجلجلة بدلا من أن يجهش في البكاء حسب ما يتطلبه هدف القصة ، ثم قال وهو يمسح عينيه اللتين اغرورقتا من الضحك : « عافاك . جميلة جدا . أكتب لنا قصصا أخرى من هذه النوعية ... »

ما زالت هذه الخيبة الأولى التي عانيت منها في مجال الكتابة مستمرة حتى الآن . فأكثرية المواد التي أكتبها مستهدفا استثارة سيول الدموع لا تثير لدى قرائي الا عواصف الضحك والقهقهة .

حتى بعد ذيوع شهرتي . ككاتب هزلي ساخر لم أكن أعرف بعد معنى السخرية . ولا أستطيع ان أزعم الآن بأنني أصبحت أعرف ذلك حق المعرفة غير أنني أقدر على البوح بمدى معرفتي للسخرية . لقد تعلمتها وأنا أمارسها . ما أكثر ما يوجه الي سؤال : « كيف تصنع السخرية ؟ » . ان هناك من يريد الحصول على الوصفات والحبوب مني . اليكم هذه الوصفة الكافية الوافية : « ان صناعة السخرية عمل بالغ الجدية » ان هذه العبارة هي الخلاصة المكثفة لما تعلمته حول هذا الموضوع .

عندما دفعت السلطة ببضعة آلاف من الرجعيين الى الهجوم على مكاتب جريدة « ثان » التي كنت أعمل فيها وذلك في عام ١٩٤٥ ، مما أدى الى هدم تلك المكاتب ، بقيت عاطلا عن العمل . أخفقت في العثور على عمل في أية من الصحف الموجودة آنذاك . كانت الصحف والمجلات ترفض المواد الموقعة باسمي مما دفعني الى استخدام ما يزيد عن المئتين من الأسماء المستعارة خلال تلك الفترة من الزمن . ان المواد التي كتبتها في حينها كانت تشتمل على الافتتاحيات والزوايا والريبورتاجات والمقابلات الصحفية والتحقيقات والروايات البوليسية والقصص القصيرة والخواطر الخ ... كلما اهتدى أصحاب الصحف وممولوها الى اكتشاف حقيقة أن صاحب هذا الاسم المستعار هو أنا كنت أضطر الى اختراع اسم مستعار جديد .

حدث العديد من الاشكالات بسبب هذه الأسماء المستعارة . نشرت ، مثلا ، كتاب مونولج للأطفال وقعته باسمي ولدي « أويا » و « آتيش » . وبما أن السلطات لم تعرف حقيقة أنني كاتب هذه

المونولوجات فقد دخلت على الفور الى جميع المدارس الابتدائية وصارت تستخدم في سائر الحفلات الترفيهية . وفيما بعد ورد ذكر اسم « آويا آتيش » على أنها احدى الكاتبات التركيات في موسوعة لأسماء الكتاب المعروفين في تركيا .

ان قصة نشرت لي في احدى المجلات موقعة باسم فرنسي خيالي أخذت نموذجا للأدب الساخر الفرنسي في كتاب ضم مختارات من الأدب الساخر في العالم .

وقصة أخرى نشرتها باسم صيني خيالي في احدى المجلات نشرتها مجلة أخرى بعد فترة من الزمن زاعمة أنها قصة مترجمة عن اللغة الصينية .

على الرغم من أنني ، بغية كسب القوت ، عملت بقالا وبائعا متجولا ومحاسبا وبائعا للصحف ومصورا فوتوغرافيا والخ ... في الفترات التي لم أعمل فيها كاتبا فإنني لم أحقق أي نجاح يذكر في كل هذه الأعمال .

قضيت مدة خمس سنوات ونصف في السجن بسبب كتاباتي . كانت فترة ستة أشهر من هذه السنوات الخمس والنصف بسبب فاروق ملك مصر ورضا بهلوي شاه ايران . أقام كل من هذين العاهلين دعوى ضدي عن طريق سفارتي بلديهما في أنقرة بحجة أن كتاباتي اشتملت على ألوان السخرية والاستهزاء بهما . وبنتيجة المحاكمة فرضت المحكمة بحقي عقوبة السجن لمدة ستة أشهر .

عندي ولدان من زوجتي الأولى واثنان من زوجتي الثانية أي ما مجموعهم أربعة فقط .

حين اعتقلت للمرة الأولى عام ١٩٤٥ تركزت اسئلة البوليس على ما يلي :

- من هو الكاتب الحقيقي لكل هذه الكتابات الموقعة باسمك ؟
لم يكونوا مقتنعين بأنني كاتبها .

وبعد هذه الحادثة بفترة لم تكن طويلة ، بعد عامين اثنين فقط ، حدث العكس تماما ، ففي هذه المرة ادعى البوليس أن كتابات موقعة بأسماء اخرى غير اسمي هي لي . عانيت الكثير وأنا أسعى لأثبت أن هذه المواد كتبتها أنا حينا وأن تلك المواد لم أكتبها أنا حينا آخر . أكد الخبير في احدى المرات أن كاتب المقالة الموقعة باسم آخر هو أنا فسجنت مدة ستة عشر شهرا من جراء مادة لم أكتبها .

اقترنت بزوجتي الأولى في جو مفعم بأنغام الموسيقى ، أذكر منها « الكومبارستيا » بعدِ المرور تحت سيوف رفاقي الضباط . أما بالنسبة لزوجتي الثانية فقد ألبس كل منا خاتم الخطبة لخطيبه من خلال القضبان الحديدية لواجهة السجن . من الواضح أنها ليست سيرورة واعدة بالخير العميم .

كنت ناحلا ثم غدوت بدينا مكتنزا بسبب نومي الطويل في السجن .

فزت بالمرتبة الأولى في المسابقة الدولية للكتابة الساخرة التي جرت في ايطاليا عام ١٩٥٦ وحصلت على جائزة « النخلة الذهبية » . وعلى الأثر بدأت الصحف والمجلات التي كانت تأبى أن تنشر كتاباتي موقعة باسمي بنشر هذه الكتابات مذيلة باسمي الصريح بعد حصولي على « النخلة الذهبية » . ولكن ذلك لم يدم طويلا .

وحين مسح اسمي من الصحف مرة ثانية اضطررت في عام ١٩٥٧ الى الفوز مرة أخرى بالمرتبة الاولى والحصول على « نخلة ذهبية » ثانية . وبعد ذلك عاد اسمي الى الظهور على صفحات الجرائد والمجلات . وفي عام ١٩٦٦ فزت بالمرتبة الأولى في مسابقة الكتابة الساخرة التي جرت في بلغاريا وحصلت على جائزة « القنفذ الذهبي » .

لدى حدوث ذلك التغيير السياسي المعروف في البلاد بتاريخ ٢٧ أيار ١٩٦٠ فرحت كثيرا وتبرعت بواحدة من النخلتين الذهبيتين لخزينة الدولة . وبعد هذا الحدث ببضعة أشهر ألقي بي في السجن . أما النخلة الذهبية الثانية والقنفذ الذهبي فأحتفظ بهما أملا في أن يلزماني في الأيام السارة المقبلة .

يعبر الكثيرون عن حيرتهم ازائي كوني قد كتبت ما يزيد عن الألفين من القصص . وليس في هذا الأمر ما يدعو للحيرة والاستغراب . فلو كانت أسرتي التي أتولى مسؤولية اعالتها مؤلفة من عشرين شخصا بدلا من اثنتي عشر شخصا كما هو الحال لاضطررت الى كتابة ما يزيد عن الأربعة آلاف من القصص .

أنا الآن في الثالثة والخمسين من عمري ، صدر لي ثلاثة وخمسون كتابا ، مدين بأربعين ألف ليرة ، لي أربعة أولاد وحفيد واحد . أعيش وحدي . ترجمت مقالاتي الى ثلاث وعشرين لغة وكتبي الى سبع عشرة لغة أما مسرحياتي فقد عرضت على مسارح سبعة بلدان .

لم أستطع أن أخفي عن الآخرين سوى شيئين يخصانني

وهما : تعبي وسني ... فيما عدا هذين الشيئين كل ما يخصني واضح ومكشوف للملأ ... هناك من يقول أنني أبدو أصغر سنا مما أنا . لعلني لم أتقدم في السن لأنني لم أجد وقتا أعيش فيه بسبب انشغالي الدائم .

لست من أولئك الذين يقولون : « لو أتيت الى هذا العالم مرة ثانية لفعلت الأشياء التي قمت بها مرة أخرى » ، ففي رحلة العمر الثانية ، اذا ما أتيحت لي ، فإنني أريد أن أفعل ما هو أكثر وأفضل وأجمل بما لا يقاس مما فعلته في المرحلة الأولى .

لو وجد في تاريخ البشرية شخص واحد لم يمت لاتخذته نموذجا ولامتنعت أنا أيضا عن الموت . ولكن ما العمل ؟ ليس هناك مثال يحتذى ، فالذنب ليس ذنبي ، سأموت شأني شأن غيري ...

انني شديد الولع بالناس وعميق الحب لهم حتى أنني أغضب منهم أحيانا من فرط حبي لهم .

هذه هي قصتي التي لم تنته بعد ، أعرف أن القراء بصورة عامة يملون الكتابات الطويلة ولذا فإنني أعتقد أن نهاية قصتي هذه لن تطول كثيرا . ان ما يستثير فضولي أكثر من أي شيء آخر هو خاتمة هذه القصة التي لن أستطيع الاطلاع عليها أبدا .

ما زالت قصتي مستمرة

مضى أحد عشر عاما منذ كتبت « قصة حياتي » . وأنا الآن أقوم بإدخال بعض التعديلات على نصوص قصصي القديمة في طبعاتها الجديدة . فعبارة : « رجل على حافة قبره في الخمسين من عمره مع حسناء ساحرة في العشرين ... » مثلا أعدلها لتصبح : « رجل على حافة قبره في الستين من عمره مع حسناء ساحرة في العشرين ... » وفي السنوات الأخيرة أصبحت أزيد من عمر الرجل العجوز فأقول : « رجل على حافة قبره في السبعين من عمره مع حسناء ساحرة في العشرين ... » وقد أرفع عدد سني الرجل بعد عدد

من السنين الى الثمانين ولكن عمر الفتاة سيبقى دون أي تغيير . إنه لأمر مثير للحيرة ، كان ناظم حكمت يكبرني بأربع عشرة سنة أما الآن فقد أصبحت أكبر منه بأربع سنوات . وفي حين أن صباح الدين علي أكبر مني بسبع سنوات فانني الآن أكبر منه بأربع سنوات . وأورهان ولي الذي كان يكبرني بسنة واحدة تجاوزته في السن وأصبحت أكبر منه بالعديد من السنين ... وكمال طاهر الذي يكبرني بخمس سنوات صار الآن أصغر سنا مني بثلاثة أعوام .. والحكاية نفسها تكررت مع كل من صباح الدين أيوب أوغلو وبدري رحمي وغيره وغيره ... فهل سيخاطبني جميع هؤلاء قائلين : عمي عزيز . اذا ما التقينا يوما في أحد الاماكن ؟ .

مرة أخرى تقاسمت حريتي مع زوجتي التي بقيت منفصلا عنها مدة عامين .

طرأت على حياتي ثلاثة تغييرات كبيرة وأنا في الخامسة والخمسين من عمري . فأولا : تركت التدخين وقد كنت أدخن خمس باكيتات في اليوم . وبما أنني ارتكبت أكبر الحماقات باعتيادي على التدخين وتصرفت بحكمة كبيرة بتركي له فقد تعادلت الحماقة والحكمة عندي وغدت النتيجة صفر الى صفر وباليد صفر ... ولكنني سأعود الى التدخين ثانية . تريدون معرفة التاريخ ، أليس كذلك ؟ سأعود اليه حين أصبح في التسعين من عمري لتذوق ملذات الحياة في القرن الواحد والعشرين بشكل أكثف ...

ثانيا : ذات ليلة ، في ساعة متأخرة لعلها واحدة من ساعات النهار الجديد الأولى ، تجمدت أطرافي . قلت في نفسي : « ها قد

انتهت هذه اللعبة الجميلة ... ها قد انتهت قصة حياتي » . ولكنها لم تنته وذلك يعني أن العالم ما زال مضطرا لأن يعاني مني . اتضح في اليوم التالي بعد فحوص الطبيب المختلفة أنني مصاب بداء السكر الخفي . انني معتاد اخفاء همومي وأحزاني عن أصدقائي اعتيادا قويا حتى أن مرض السكر المسكين عجز عن الظهور فظل مستترا . بسبب هذا المرض بدأت أشرب الشاي دون سكر .

ثالثا : والتغيير الثالث في حياتي يكمن في حقيقة أنني مذ بلغت الخامسة والخمسين لم أضع رأسي بين يدي شخص آخر ولو لقص الشعر . انني أقوم بقص شعري حتى دون النظر في المرآة بالاستناد الى اللمس فقط وبمقص الورق الموجود باستمرار على طاولتي ... أعرف أن القصة تكون مشوهة بعض الشيء ولكن غزارة شعري وكثافته ، هذا الشعر الذي يزداد طويلا خلال ساعات ، كفيلتان بملء الفراغات والقضاء على جوانب التشويه . وهكذا تحررت من الذهاب الى الحلاق وانتظار الدور واضاعة الوقت هناك . والأكثر أهمية من ذلك هو أنني تحررت من قيام شخص آخر مهما كان شأنه باعطاء الشكل الذي يريده لرأسي ، من توجيهه له ممسكا بذقني مرة الى هذه الجهة وأخرى الى تلك حسب مشيئته هو ...

في هذه السنوات العشر فزت بجائزتين عالميتين هما : جائزة هيتار بيتر البلغارية ولوتس التي يقدمها اتحاد كتاب آسيا وأفريقيا . كما أن الجوائز المحلية التي نلتها أصبحت أربعا . أتريدون معرفة معنى هذه الجوائز والأوسمة وما اليها ؟ انها أكاليل الورد التي تنشر هنا وهناك للتخفيف من حدة الألم ومن شدة الحزن على الطريق

الوعرة الصعبة للغاية والمليئة بالأشواك هذه الطريق الشائكة التي توصل الى الموت . لا تصدقوا أولئك الذي يستصغرون من شأن الجوائز فهي نوع من خطب الود بواسطة قطع من الورق أو المعدن .

سبق لي أن كتبت : « أنا الآن في الثالثة والخمسين من عمري ، صدر لي ثلاثة وخمسون كتابا . مدين بأربعين ألف ليرة ، لي أربعة أولاد وحفيد واحد . « والآن : أنا في الرابعة والستين . زاد عدد كتبي عن عدد سني حياتي ، صدر لي سبعون كتابا ، لست مدينا ، لي أربعة أولاد وثلاثة أحفاد . زاد عدد اللغات التي تمت ترجمة أعمالي اليها عن الثلاثين .

في السنوات العشر السابقة كسبت أكثر من أي كاتب آخر في تركيا . غير أنني لست معتادا على الراحة فلعل هذا هو السبب الكامن وراء قيامي بتأسيس وقف لتربية اللقطاء بالمبالغ التي تزيد عما تتطلبه حياتنا المتواضعة المقتصدية .

انني أعيش الحياة التي كنت أعيشها قبل عشر سنوات وقبل عشرين سنة . أنتظر في الصفوف الطويلة حتى يصلني دور ركوب سيارات الخدمة ، أدس نفسي في الباصات والحافلات المزدحمة ، أمشي حين أريد أن أكون مرتاحا ، اشتري حوائجي من السوق ، كثيرا ما أشق طريقي بين الحشود المتزاحمة . بعد أن تجول معي شخص لم يسبق له أن حمل حاجة بيده في الأسواق أقحمته في الصف الطويل لمنتظري سيارات الخدمة فقال لي :

ـ لقد عرفت سبب بقائك بين الناس ...

ـ ما هو ؟
ـ لأنك تغوص في أعماق هؤلاء الناس وتلتقط مادة لكتاباتك .
بالله عليكم هل هناك ما هو أكثر حقارة من اعتبار الشعب « مادة خام للكتابة » ؟ . فوجودي بين الناس انما ناجم عن أنني واحد منهم ، شأن شأن السمك الذي لا يستطيع العيش خارج الماء تماما .
في السنوات العشر الأخيرة ضاعف أعدائي من عدواتهم لي كما أنهم زادوا من حيث العدد زيادة كبيرة لست جديرا بمثلها . لا أظن أنني أنجزت أعمالا عظيمة وإيجابية على المستوى الذي يجعلني أهلا لمثل ذلك العدد من الأعداء ولمثل تلك الحدة من العداوة . ان اعدائي ، في حقيقة الأمر ، يفسدونني ويجعلونني أصاب بالغرور .
وأعرف أيضا أن اصدقائي قد زادوا هم الآخرون ، فليسلموا .
وقد نمت علاقاتي مع قرائي في السنوات الأخيرة نموا هائلا وأصبحت تثير الحيرة . أصبحت كما لو كنت أعيش في بيوت قرائي وكأن قرائي يعيشون في بيتي ... سأسعى لايضاح معنى هذا الكلام بعدد من الأمثلة . يقرع بابي بعد منتصف الليل مثلا . يكون الزائر قارئا من قرائي أراه للمرة الأولى . يقول أنه مولع بحل الكلمات المتقاطعة التي تنشر في الصحف . لم يستطع أن يهتدي الى الكلمة التي تعني كذا . ومن هو أقدر الناس على معرفة مثل هذه الكلمة ؟ ربما أنا حسب اعتقاده .
دعوت صاحبي الى غرفتي . بحثنا سوية لفترة طويلة ونحن نقلب صفحات الموسوعات أملا في الاهتداء الى الكلمة المطلوبة

ولكننا أخفقنا ...

في الساعة الواحدة ليلا يرن جرس الهاتف :

ـ أريد أن أتحدث معك في موضوع هام فهل أستطيع أن أزورك في البيت ؟

وبعد طول اصرار مني على أن يبوح بما يريد قوله لي عبر الهاتف أوضح الهاتف أنه يريدني أن أقرضه خمسة آلاف ليرة . فهو مضطر لأن يدفع أربعين ألف ليرة كمهر لأهل خطيبته وقد استطاع أن يجمع خمسا وثلاثين ألفا فقط . لذا يريدني أن أقرضه خمسة آلاف ليرة .

وهناك العديد ممن يطلبون مني أن اقرأ أشعارهم وقصصهم وروایاتهم وهناك من يأتي الى بيتي ليتلوا أمامي أعماله وهناك طلاب العمل وطلاب المال ... وهناك حسنو النوايا ممن يقولون كلاما من قبيل : « اذا طبعتم أشعاري في كتاب فإنني سأتبرع بحقوق التأليف لوقفكم » .. وهناك من يأتيني بالخطط الكفيلة بتنمية تركيا وتطويرها ... وهناك من ينتقدون كتبي ويهاجمونها بعنف ... وآخرون يرغون ويزبدون غضبا ازاء مقالاتي وقصصي ...

ذات ليلة اتصلت بي سيدة هاتفيا وتحدثت بكثير من الخجل حول أنها لم تلتق بي قط غير أنني أقرب الناس اليها ثم سألتني بم أنصحها لمعالجة وضع ابنتها البالغة السابعة عشرة من العمر ولم تر الحيض حتى الآن ، وهل هناك طبيب أدلها عليه ؟ ... وكانت هناك أم تسألني عن حل لمشكلة ابنها الذي بلغ الثامنة عشرة من العمر ولم يبدأ شعر شاربه بالنمو .

إياكم أن تظنوا أنني اصطنع هذه القصص من خيالي . ذات ليلة قفزت من فراشي حين أيقظني جرس الهاتف . رفعت السماعة فتسلل الى أذني صوت نسائي كالمخمل . لقد قرأت أحد كتبي وانتهت منه في تلك اللحظة فأرادت أن تنقل إلي أحاسيسها وعواطفها ازاء ما جاء في الكتاب ...

جاءتني رسالة من أحد التلاميذ : طلب المعلم منه أن يكتب عني كوظيفة شهرية ، تقول رسالة التلميذ : « اكتب قصة حياتك وأرسلها إلي ولكن إياك أن يزيد الكلام الذي تكتبه عن الصفحتين . أنتظر الجواب خلال أسبوع واحد » .

هذا القدر من الاهتمام والحب يصل الى حدود اعاقتي عن عملي ، عن الكتابة وعن القراءة . كنت في السابق أثور ازاء مثل هذا الوضع وأتألم . أما الآن فقد تغير موقفي منه . ان السبب الذي يجعل قرائي يحسون بضرورة مصارحتي بمشاكلهم وهمومهم هو أنهم يجدونني قريبا جدا منهم ، صديقا حميما لهم . وهم لا يتصرفون مثل هذا التصرف بلا مبررات ، فأنا الذي جعلتهم يشعرون بمثل هذا القرب من خلال كتبي . انني أعيش في بيوتهم ، معهم على الدوام ، قريبا منهم باستمرار . فرغم أنني أعيش وحدي فأنا وسط حشد كبير من الناس . لقد بدأت الآن أشعر حتى بالسعادة ازاء هذا الوضع الذي طالما أزعجني في السابق .

ان مصدر أكبر الازعاجات بالنسبة لي هو أنني لا أجد الا القليل من الوقت للكتابة فضلا عن أن هناك العديد من الأشياء الأخرى التي تتطلب الوقت ...

فالاجتماعات والمجالس والحوارات المفتوحة والقاء الكلمات والرد على اسئلة مراسلي الجرائد والمجلات والنشاطات الاجتماعية والنقابية والفعاليات الثقافية والتطوعية والمساعدات وغيرها وغير .. كل هذا يتطلب الوقت فمتى اذن أجد الوقت الذي أحتاج اليه للكتابة ؟

انني بحاجة ماسة الى الوقت ... أرجوكم اذا كان لدى أحدكم شيئامن الوقت فليعطيني قليلا منه ... اذا توفر لي الوقت فإنني أعدكم بكتابة قصة السنوات العشر التالية من قصتي حين أبلغ الرابعة والسبعين من العمر .

الى اللقاء يا من يعيشون معي وفي أعماقي . والى اللقاء يا من أعيش معهم وفي أعماقهم .

٢٦ / ٢ / ١٩٧٩

عاش الوطن !

وأخيرا كلفت مجموعتنا بتفتيش معمل الأدوات المعدنية العائد « لكاشيربيك » ربما لأن صبر المسؤولين قد نفد أو قرروا أن المخالفات تجاوزت الحدود وربما لأن الشكاوى والتقارير أصبحت أكثر من أن تضمها المصنفات الموجودة في مكاتب الرقابة والتفتيش . لقد صدر القرار القاضي بتكليفنا باجراء التفتيش على المعمل المذكور مهما كانت الأسباب . ولأن الشكاوى والتقارير التي تحدثت عن المخالفات كانت كثيرة من جهة وهامة من جهة ثانية فقد ضمت بعثتنا خمسة من المفتشين أحدنا خبير حسابات واثنان من

المفتشين الماليين وأنا مفتش عمل .

استغرقت عملية دراسة الملفات وتسطير المخالفات مادة مادة اسبوعا كاملا من الوقت . يا للغرابة ! أمن المعقول أن يتم ارتكاب كل هذه المخالفات ؟ هل يستطيع أحد أن يصدق أن هناك دوس للحقوق بهذا الشكل ؟ كانت أوداجنا تنتفخ من شدة الغضب !

لنقل أن التهرب من دفع الضرائب ليس على درجة كبيرة من الأهمية ، فهناك الكثير ممن يفعلون ذلك . ولكن ماذا عن قيامه بتشغيل الأطفال ممن هم في سن المدرسة الابتدائية بأجور زهيدة جدا ؟ وماذا عن تشغيل العمال عشر ساعات واحدى عشرة ساعة بدلا من ثمان ساعات في حين يسجل على الدفاتر أنهم اشتغلوا ثماني ساعات فقط ؟ وماذا عن الامتناع عن دفع أجور الساعات الاضافية ؟ ماذا عن طرد العمال الذين يصابون بالاصابات المهنية دون أية تعويضات ؟

لقد اعتدى صاحب المعمل على اعراض عدد من الفتيات والنساء الجميلات ، لنقل أنه ليست لنا علاقة بمثل هذه المواضيع ولنترك الأمر للشرطة والنيابة العامة أضف الى ذلك أن مثل هذا السلوك أصبح عادة لدى معظم أرباب العمل .. ولكن ماذا عن عدم دفعه تعويضات لزوجة عامل السكب الذي توفي بحادث انفجار القدر ؟!! شغل زوجة العامل المقتول وابنه في المعمل احسانا منه اليها كما زعم ، وهي الآن لا تطالب بأية تعويضات خوفا من أن يطردها من العمل .. دخلت برادة الحديد الى عيني اثنين من عمال المخرطة ولكنهما لم يستطيعا أن يطالبا بأية تعويضات بل يستمران

في عملهما وكل منهما يحاول أن يحرص على عينه السليمة قدر استطاعته .

كنا ، نحن الخمسة ، مفتشين شبابا مبتدئين . فأنا الذي كنت أقدم اعضاء البعثة لم يكن قد مضى على توظيفي الا سنة ونصف السنة .

في ساعة مبكرة من صباح أحد الأيام دخلنا الى المعمل الكائن في الخليج . كنا عابسين ومصرين على انزال أشد العقوبات (بكاشبيك)۰لم نبتسم لأحد . كل واحد منا كتلة متقدة من الجدية والتصميم .

استقبلنا عند باب الحديقة خمسة الى ستة أشخاص .. عرفونا بأنفسهم : فالأول هو المدير الاداري للمعمل والاخرون محاسبون واداريون وموظفون .. تم استقبالنا بالكثير من الاحترام . راحوا يتحدثون دون توقف ، يشرحون لنا حالة المعمل ويضحكون .. أما نحن فلم نكن من تلك النوعية التي تلين بسهولة . ظلت وجوهنا عابسة تقطر سما .

عبرنا الحديقة الكبيرة التي حظت بالكثير من العناية والرعاية لنصل الى مبنى المكاتب الادارية في المقدمة ومخازن المعمل في الخلف .. وفيما كنا ندخل باب مبنى المكاتب الادارية قلت بلهجة موظف متمسك باداء واجبه :

- سنقابل كاشير بيك اولا .

راح المدير يفرك يديه احداهما بالاخرى ويأتي حركات ذات مغزى وردد قائلا :

- بالطبع يا حضرة السيد المحترم ، ان كاشير بيك نفسه بانتظاركم اساسا .

- هل كان يعلم بأننا سنأتي الى هنا ؟

اتضح أنه أصيب بالحيرة ازاء سؤالي هذا :

- نعم ، بطبيعة الحال يا سيدي ، وكيف لا يعرف ؟ نعم كان يعرف أنكم ستأتون لتشرفوا المعمل بكل تأكيد ..

دعينا على قاعة كبيرة أكثر شبها باحدى قاعات المتاحف منها بقاعة أحد المعامل . كانت الجدران كلها مغطاة بالصور المؤطرة بحيث لم يبق من هذه الجدران أي فراغ ولو بمقدار شبر واحد . شاهدنا في بعض الأطر الزجاجية رسائل كتبت بالأحرف العربية . ولدى دخولنا الى القاعة نظرت الى الجهات المختلفة حيث الواجهات الزجاجية والطاولات المغطاة بالزجاج فرأيت مجموعات من الأقلام والأوسمة والقداحات والساعات وما اليها .

أصابني شيء من الدهشة حين دخلنا الى هذه القاعة الشبيهة بقاعات المتاحف متأبطين حقائبنا الملأى بالملفات .

- تفضلوا ارتاحوا أيها السادة الاعزاء .. أرجوكم تفضلوا !

كان المدير الاداري بالغ اللباقة . جلسنا في المقاعد الوثيرة التي غصنا فيها . لم نتذكر حتى هذه اللحظة أن علينا أن نبلغ المدير الاداري بمهمتنا ونطلعه على هوياتنا ، فعقب المدير الاداري قائلا :

- نعرف ذلك يا سيدي . كل ما تطلبونه من أجل التفتيش جاهز تحت تصرفكم .. ولكن لا بد من تناول فنجان قهوة اولا بعد عناء الرحلة التي قمتم بها ..

كان جوابنا نحن الخمسة موحدا من قبيل : « لا حاجة لذلك ، شكرا ، لا نستطيع أن نشرب شيئا .. لن نشرب »

- اذن اشربوا كأسا من الشاي !

- لا ، ميرسي .. من الأفضل أن نبدأ العمل الذي جئنا لانجازه فوراً . فلنقابل كاشير بيك اولا !

كما تأمرون يا سيدي .. ان سيادته سيأتي حالا . ألن تشربوا شيئا باردا ... ما رأيكم بكأس من الليمون أو الكازوز البارد أو عصير الفاكهة ؟

من المستحيل أن نشرب حتى الماء في معمل لشخص سافل وحقير على هذا المستوى .

في حين أننا متوهمون بأننا جئنا بصورة مفاجئة لضبط الأمور كما هي فان اداريي المعمل وأصحابه يعرفون مسبقا بمجيئنا وبموعده وقد استعدوا لاستقبالنا .

حين فتح الباب أطل علينا رجل عملاق أكرش يبدو أنه فوق الستين من العمر يرتدي طقما بالغ الأناقة ذا لون رمادي . وما أن خطا الرجل نحونا حتى قفز الموظفون واقفين واتجهوا نحوه دفعة واحدة ليصطفوا خلفه باحترام . كان منظر الرجل يوحي بالاحترام بل وينتزعه ممن هم حوله الى درجة أننا ، رغم معرفتنا الأكيدة بأنه كاشير بيك ، حين قفز الاخرون من أماكنهم واقفين ، اضطررنا نحن ايضا الى تغيير جلساتنا ، كما أن زميلنا خبير الحسابات قفز واقفا لأنه معتاد على احترام كبار السن ومن ثم ، ربما لأنه تذكر أننا هنا للتفتيش ، عاد فجلس . ولكن أحد المفتشين الماليين وقف من جهة

وخطا خطوتين نحو كاشير بيك من جهة ثانية . أما زميلنا الذي كان يجلس لافا ساقا بساق فقد أنزل ساقه واستقام في جلسته . وقد اكتفيت أنا برفع مؤخرتي عن الكرسي مسافة شبر واحد .

ما أن تجاوز كاشير بيك الباب حتى رفع احدى يديه ليمدها الى الأمام وهو يقول كما لو كنا جميعا قد وقفنا لاستقباله :

ـ أرجوكم ! لا حاجة لأن تقفوا ، لا لزوم لذلك ، ابقوا مرتاحين . اجلسوا ، اجلسوا يا ابنائي !

عبارته الأخيرة هذه التي قالها بأبوية واضحة حين قال « يا ابنائي » استفزت أعصابي من الأعماق . يا لها من قلة أدب ، يا لها من قلة احترام .. لا شك أن أعصاب المفتش المالي الذي قفز واقفا لدى دخول كاشير بيك مع موظفي المعمل قد استثيرت ايضا لأنه لدى سماعه لعبارة « يا ابنائي » أدار ظهره للرجل وأشعل سيجارة . أما أنا فقد وضعت ساقا فوق الاخرى ورحت أنفخ دخان سيجارتي نحوه .

اقترب كاشير بيك منا وقال وكأنه يعرفنا منذ سنوات :

ـ أهلا بكم وسهلا يا ابنائي ! كيف هي أحوالكم ؟ ماذا وراءكم ؟

ولكي ألقنه درسا لن ينساه علي رفع الكلفة هذا نهضت واقفا وقلت بكثير من الجدية :

نحن بعثة تفتيشية . هناك شكاوى وتقارير عن مخالفات تجري في معملكم .. جئنا نحقق في هذه التهم .

أطلق الرجل ضحكة من أعماقه وقال بين القهقهات :

ـ بسيطة ، بسيطة ، تلك مسألة بسيطة .. ذلك يعني أننا نحن ايضا نرتكب المخالفات !؟!!

بعد مثل هذه التعليقات الساخرة التفت الى المدير الاداري ليسأله :

- هل قدمتم شيئا للسادة الضيوف ؟

- فأجاب المدير الاداري بلهجة المذنب وهو يلوي عنقه قائلا :

- سألناهم ولكن السادة رفضوا أن يشربوا شيئا .

- لا يا بني هؤلاء ضيوف .. وهل تريدونهم أن يطلبوا منكم بأنفسهم ؟ ما أغرب أمركم ! فلتجلبوا ما هو موجود بسرعة !

اندفع شخص او اثنان من الموظفين الى الباب فيما علق صاحبنا المفتش المالي قائلا :

- لا لزوم ، لذلك .. لن نشرب شيئا .. لن نشرب ..

أما أنا فكنت أردد عبارة :

- نحن جئنا للتفتيش .. نحن مفتشون .

ولكن كاشير بيك لم يأبه بتعليقاتنا بل اندس فيما بيننا وهو يضحك ويقول : « بالطبع ، بالطبع يا أحبائي » وهو يشد على يد أحدنا بيديه الاثنتين ويربت على كتف الاخر ويداعب ظهر الثالث . كنت أنا في الجانب الأيسر وحينما وصل الي أمسك بذقني كما لو كان يداعب طفلا في يوم عيد ثم انتقل الى حيث كان زميلنا خبير الحسابات واقفا ليداعب وجنتيه هو الاخر . كم كان أبويا في تصرفاته ! فرغم أنني فكرت بدفع اليد التي كانت تمسك بذقني فانني لم استطع أن آتي بأية حركة متأثراً بأبوته الاسرة .

جاء ثلاثة أشخاص وقد حمل كل منهم صينية ملأى بالكؤوس . لقد كانت كؤوسا من مختلف أنواع الشراب والمرطبات .

قلت :

- حبذا لو بدأنا بمهمتنا .

فرد كاشير بيك بسرعة :

- بسيطة ، بسيطة .. دعونا الان نشرب شيئا اولا ..

كانت كؤوس المشروبات تحوم حولنا وصدقوني اذا قلت أنها ما أن تصبح أمام المرء حتى يصبح عاجزا عن الاستمرار في رفض تناولها ، فمثل هذا السلوك سلوك وقح بصورة واضحة . ومع ذلك بردت وجهي وقلت :

- لا ، لن أشرب !

هناك عصير بندورة ، خذوا منه .. أخذت كأسا من عصير البندورة ، وشربتها . فيما تابع كاشير بيك كلامه ، قائلا :

- هل اطلعتم على الصور المعلقة في الجدران !؟ انظروا اليها ، انها ذكريات ثمينة جدا .

وحين بقينا في أماكننا دون حركة نادانا وهو يلوح لنا بيده ويقول

- تعالوا انظروا .. هذه الصورة مأخوذة في أصعب أيام حربنا التحريرية . يا لها من أيام عظيمة ! هكذا استطعنا نحن ، يا ابنائي ، أن نحرر هذا الوطن . نعم كنا نفتقر الى الاسلحة والمعدات والذخيرة غير أننا كنا مفعمين بقوة الايمان ..

اقتربنا من الصورة التي أشار اليها بيده واندس هو فيما بيننا ثم مد ذراعيه كجناحين - ليضعهما فوق أكتافنا وراح يشرح :

- هذه الصورة ، يا أولادي ، أخذت في اليوم الذي قمت فيه بإخماد

الحركة التمردية التي قامت في منطقة بولو ، لا شك أنكم تعرفون أن تمردا مسلحا كبيرا ضد مجلس الأمة الكبير الذي عقدناه في أنقرة كان قد قام في تلك المنطقة .. نعم ، اننا أنقذنا هذ االوطن بهذه الطرق ..

ثم أشار الى الصورة المجاورة . انها صورة أحد العظماء في تاريخنا الحديث وفوق الصورة عبارات كتبت بالأحرف العربية القديمة . سألنا كاشير بيك :

ـ هل تستطيعون قراءة العبارات ؟ لا ...

ـ فلأقرأها لكم أنا اذن « الى أخي العزيز كاشير ... » كنت أقرب الناس اليه يا لتلك الأيام ، كم كانت رائعة !

بدونا تحت ذراعيه اللتين وضعهما فوق أكتافنا كالجناحين مثل الصيصان . دفع بنا نحن الخمسة مرة واحدة نحو الجدار المقابل بذراعيه المبسوطتين فوق أكتافنا . كانت هناك خريطة كبيرة لتركيا . حمل العصا المستندة الى الجدار وراح يشرح لنا وهو يشير الى مختلف الأماكن على الخارطة بالعصا أحداث التاريخ قائلا :

ـ هذه هي « جيفة » محاطة بالجبال من الجانبين .. يتقدم العدو من هنا ومن هنا على محورين .. أما أنا فقد جعلت لوائي يتمركز في هذه النقطة .. صحيح لواء ولكن الأسلحة في تلك الأيام قليلة وليس عندي سوى ثلاثة مدافع رشاشة ..

أسمعنا الرجل واحدة من ذكرياته أيام حرب الاستقلال وكانت مثيرة بالفعل . انتفضت من شدة التأثر .

ـ استدعوني الى غرفة الهاتف .. ذهبت .. معي مصطفى على

الخط ..

سأل المفتش المالي :

ـ أي مصطفى ؟

نظر اليه كاشير بيك بشيء من الاحتقار ؟

ـ كم مصطفى عندنا ؟

مرة اخرى جرنا نحن الخمسة بذراعيه ليوقفنا أمام لوح زجاجي مؤطر يحتوي على رسالة كتبت بالأحرف العربية .

ـ هذه رسالة منه ، سأقرأها لكم اذا أردتم « أخي ، عزيز كاشير ، ان النصر الذي حققته نصر كبير جدا . ان هذه الأمة لن تنسى لك تلك الخدمات التي قدمتها في سبيل الوطن لله . أقبلك من عينيك ! »

دفعنا بذراعيه مرة اخرى باتجاه الواجهات الزجاجية :

ـ انظروا الى هذا المسدس .. كنت قد أخذته من أحد جنرالات جيش العدو .. مصطحبا اربعة من الجنود الشجعان اقتحمت مواقع العدو في الليل .. هناك صور له أخذت مع شخصيات شهيرة في تاريخنا الحديث . صار يقف أمام كل منها ليحدثنا عنها . لم أكن أقف عند حدود التأثر بما كان يرويه من حوادث بل كنت أصل الى درجة الانفعال الشديد ..

نظرت الى خبير الحسابات فوجدت عينيه مغرورقتين بالدموع وكاد ينفجر بالبكاء بين اللحظة والاخرى ..

ـ هكذا يا أولادي .. أنتم في تلك الأيام لم تكونوا قد ولدتم بعد .. فعلنا كل ما فعلناه لنترك لكم ، لنورثكم وطنا حرا مستقلا .

صمت فجأة وبقي هكذا فترة من الزمن ، ثم أضاف :

- ربما جعلتكم تشعرون بالملل أيها الأولاد ..
رد عليه المفتش المالي وهو يزرر سترته :
- استغفر الله يا سيدي .. لقد استفدنا كثيرا .. بالعكس ..
- أصبحنا نعيش على الذكريات .. ماذا بقي لنا غيرها !؟ قد تبدو القصص التي أرويها كالأساطير بالنسبة لكم .. لنترك هذا الموضوع ولنعد الى عملنا ! قاطعه خبير الحسابات :
- نرجوكم ، يا سيدي ، نرجوكم أن تستمروا في الحديث ..
حدثنا عن الأشياء الموجودة في الواجهة الزجاجية قطعة بعد قطعة ، كما تحدث عن كل واحدة من الصور المعلقة على الجدران ثم قال :
- انه حديث طويل .. لن ينتهي بسهولة .. تعالوا نجلس قليلا في مكتبي ..
انتقلنا الى مكتب كاشير بيك . كان هذا متحفا أغنى بكثير من القاعة التي كنا فيها قبل قليل . كما أن المقاعد هنا كانت مريحة أكثر . جلسنا وتابع هو سرد ذكرياته القديمة المثيرة .
- لم يكن لدينا سوى أربع مئة من عناصر المشاة وخمسين من الخيالة وفصيل واحد من رماة الرشاشات الخفيفة .. أما العدو فقد كان فرقة كاملة من حيث العدد والعتاد .. وحين اندفع « ميمتجيكاتنا » الأبطال وهم يهتفون بنداءات « الله أكبر » مسددين حرابهم لخوض القتال بالسلاح الأبيض .. كنت أنا في المقدمة .. لن أنسى ما نسيت ما قاله لي فوزي في ذلك اليوم ..
سألته :

ـ أي فوزي يا سيدي ؟
أمسك بذقني مرة اخرى ورد بسؤال :
ـ كم تبلغ من العمر انت الان ؟
ـ أنا في الثامنة والعشرين من عمري يا سيدي ..
ـ لم تكن أمك قد حملت بك بعد في ذلك التاريخ .
ثم روى قصة البطولة الخارقة التي أبداها أحد اصدقائه في القتال مما جعل قلبي يقفز الى فمي من شدة الانفعال . وحين بدأ يتحدث عن كيفية سقوط هذا الصديق شهيدا راح ذلك الرجل العملاق كاشير بيك يبكي بصوت مرتفع وبدموع غزيرة كما لو كان يعيش تفاصيل ذكرياته مرة اخرى . أما أنا فقد عضضت على شفتي بقوة لامنع نفسي من البكاء . غير أنني حين التفت رأيت خبير الحسابات وقد غرق في الدموع فيما كان المفتشان الماليان يمسحان دموعهما ويشهقان من أنفيهما . قال كاشير بيك .
ـ اعتذر منكم ، لقد انفعلت كثيرا . ليس من الصحيح أن أقوم بسرد هذه القصص لكم أساسا ....
ـ بالعكس ، يا سيدي ، أرجوا أن تتابعوا ..
نظر الى ساعته وهو يمسح عينيه المبللتين وقال :
ـ اوه .. لقد صار الظهر يا ابنائي . لقد شغلتكم ، أنتم ايضا ، عن عملكم
نهض واقفا وفتح ذراعيه .
وحين وقف هو اضطررنا لأن نقف نحن ايضا وأن نسير خلفه حين مشى .

استقلينا سيارته الخاصة الفارهة التي كانت كبيرة اتسعت لنا جميعا .

- أين تفضلون أن تتناولوا طعام الغداء يا أولادي ؟؟؟

- اسمحوا لنا .. اننا سنذهب الى ..

قاطعني معترضا :

- ماذا تقول ؟ مرة كل اربعين سنة .. وهل هذا ممكن ؟ أنا في منزلة ابائكم .. إنني أعتبر ابا لكم ..

قال للسائق اسم المطعم الذي سيأخذنا اليه . دامت الوليمة مدة ساعتين متصلتين من الضحك والفرح وتناول أطيب المأكولات . ففي أثناء الطعام عاد الى حديثه عن ذكرياته ليروي هذه المرة مغامراته السارة والمثيرة للضحك .

انتهز خبير الحسابات احدى الفرص ليهمس في أذني قائلا :

- يا للحقارة ! هناك أناس يجرؤون على الحديث بسوء حتى عن أمثال هذا الرجل العظيم ..

علق أحد مفتشي المالية :

- نحن هكذا ، لا نستطيع أن نرى من هو أحسن منا .

أما أنا فلم استطع أن أقول سوى عبارة موجزة واحدة :

- انه نكران الجميل !

عدنا الى العمل فدعانا كاشير بيك الى احدى الغرف :

- لنشرب الان قهوتنا ثم نبدأ العمل .

أخذنا هذه المرة الى غرفة ثانية كانت ايضا أشبه بالمتحف ملأى بالصور الفوتوغرافية التاريخية والرسائل والوثائق الخ .. ثم

تابع كلامه وهو يعلق بين الحين والاخر قائلا :

ـ نعم يا ابنائي هكذا .. نعم ، بهذه الصورة ، نحن حررنا هذا الوطن . كل الذي فعلناه من أجلكم أنتم ، من أجل الشباب ..

فبعد الحرب والمعارك كان لا بد من التنمية ، وكيف تتم هذه التنمية في البلاد ؟ انها لا تتم الا بالصنيع والصناعة ..

ـ استدعاني مصطفى . لبيت الدعوة .. كنا مساء على مائدة الشراب حين عانقني وطبع قبلة على جبهتي وهو يقول : « يا أخي ، يا عزيزي كاشير .. مرة اخرى لا بد لك من خوض المعركة الجديدة .. لا بد من اقامة المصانع ومن هو أقدر منك على مثل هذه المهمة ؟ فأجبته قائلا : انني مستعد لكل المهمات مهما كانت صعوبتها ... كل قطرة من دمي ما هي الا لكي تراق في سبيل الوطن ولكن يا سيدي من أين لي الأموال اللازمة لبناء المصانع ؟ عندئذ علق مصطفى قائلا « مسألة الأموال مسألة بسيطة » .

ثم حدثنا عن الصعوبات الكبيرة والتعقيدات الكثيرة التي كان يجب عليه أن يتجاوزها ويحلها وهو يعاني من العديد من المضايقات في سبيل اقامة هذا المعمل خدمة للوطن .

ـ صدقوني يا ابنائي ان القتال في ساحة الحرب ضد العدو كان أسهل بكثير .. فقد أمضينا عمرنا ونحن نتصارع مع العدو في الجبال بالأسنان بالأظافر .. وكيف لنا أن نفهم في أمور الصناعة وشؤون التجارة ؟ غير أننا قبلنا بكل هذا لأنه واجب وطني .. هناك ما يقرب من الألف من الفقراء المعدمين الذين وجدوا عملا ، وجدوا خبزا يسدون به الرمق ، في هذا المعمل .. هيا معي الان تعالوا

أطلعكم على أقسام المعمل المختلفة ..

اقحمنا في مكان أشبه بالمستودع في الطابق السفلي . كانت الجدران مغطاة بالصور الفوتوغرافية المحاطة بالأطر السوداء :

ـ هؤلاء هم الشهداء .. انهم شهداء معارك صناعتنا القومية .. اغرورقت عيناه ولكنه تابع كلامه :

ـ هؤلاء هم اخوتي ، عمالي أنا ، الذين قضوا نحبهم بسبب حوادث العمل في هذا المصنع . أقمت مراسيم الجنائز الكبرى لكل واحد منهم .. جعلتهم يقرؤون الموالد على أرواحهم . وضعت نساءهم وأطفالهم تحت جناحي كي لا يجوعوا ويعروا وشغلتهم جميعا في مختلف أقسام المعمل .

ـ هل كان موت جميع هؤلاء بسبب حوادث العمل يا سيدي ؟

ـ نعم .. في سبيل الوطن .. عاش الوطن ! عاش الوطن ..

مسح عينيه الدامعتين واستدعى المدير الاداري ليقول :

ـ منذ هذه اللحظة لم يعد هذا المعمل عائدا لي ، انه لهؤلاء الشباب . أحضروا لهم كل ما يطلبونه ، هاتوا جميع السجلات والدفاتر وأطلعوهم على الحسابات . لهم أن ينظروا وأن يدققوا في كل شيء حسب ما يريدون .. ثم التفت الينا نحن وقال :

ـ حين تنتهون من عملكم مروا بي ! أريد أن أراكم ثانية ..

كانت الساعة قد بلغت السابعة عشرة تماما حيث دق جرس الانصراف . وكان عمال « الوردية » الاولى يغادرون المعمل في حين كان عمال « الوردية » الثانية يدخلون اليها .

دامت تحقيقاتنا في المعمل ثلاثة أيام أطلعنا خلالها على الكثير

من التفاصيل الدقيقة التي لم نكن نعرف عن حرب الاستقلال من كاشير بيك .

أصبح مفهوما أن كل تلك المخالفات والشكاوى والتقارير ما هي الا أكاذيب وتلفيقات وعندما انتهينا من التفتيش ذهبنا الى مكتب كاشير بيك ، والخجل يعتصرنا ، لنبلغه أن مهمتنا قد انتهت ولنرجو منه أن يسامحنا .

ابتسم الرجل ابتسامة أبوية عريضة وقال :

ـ هذه أمور تحدث عادة ، لقد رأينا كثيرا .. هناك أشياء اخرى أدهى وأمر .. ولكن الأهم هو أن يعيش الوطن ، عاش الوطن ! تفاهات تأتي وتمر .. كلنا راحلون عن هذه الدنيا الفانية يكفي أن يعيش الوطن يكفي أن يبقى الوطن الغالي .. عاش الوطن ! اننا سنترك هذا الوطن أمانة في أعناقكم ..

أصبحنا سعداء كما لو أنه أعطانا كل ذلك المعمل الكبير . ثم وضع كاشير بيك سيارته الفارهة مع سائقها تحت تصرفنا لايصالنا الى دائرتنا .

○ الخليج هو القرن الذهبي المتفرع عن مضيق البوسفور قبيل اتصاله ببحر مرمرة .

لا علاقة لي

- بوليس . النجدة . النجدة .

توقف المارة وراحوا ينظرون الى الرجل . بين الجمهور المحتشد كان هناك عدد من رجال الشرطة ولكنهم لم يأبهوا لصراخ الرجل بل تابعوا سيرهم شاقين طريقهم بين الحشود .

- بوليس . بوليس .

يا للغرابة ... لم يكن أحد من رجال الشرطة مستعدا لأن يسمع . على الرصيف القريب منه وقف شرطي . مستحيل الا يسمعه . فالرجل يصرخ بأعلى صوته واضعا راحتيه حول فمه .

- بوليس . النجدة . النجدة .

شق الرجل طريقه بين الجمهور واقترب من الشرطي الواقف على الرصيف المقابل ليقول :

- يا سيدي . أرجوك أن تأتي .

- ماذا هناك ؟

- هناك جريمة قتل ضحيتها رجل في الخان القريب .

- لا علاقة لي بالموضوع .

- لماذا ؟

- أنا شرطي مرور . اذا غادرت هذا المكان فان الحابل سيختلط بالنابل .

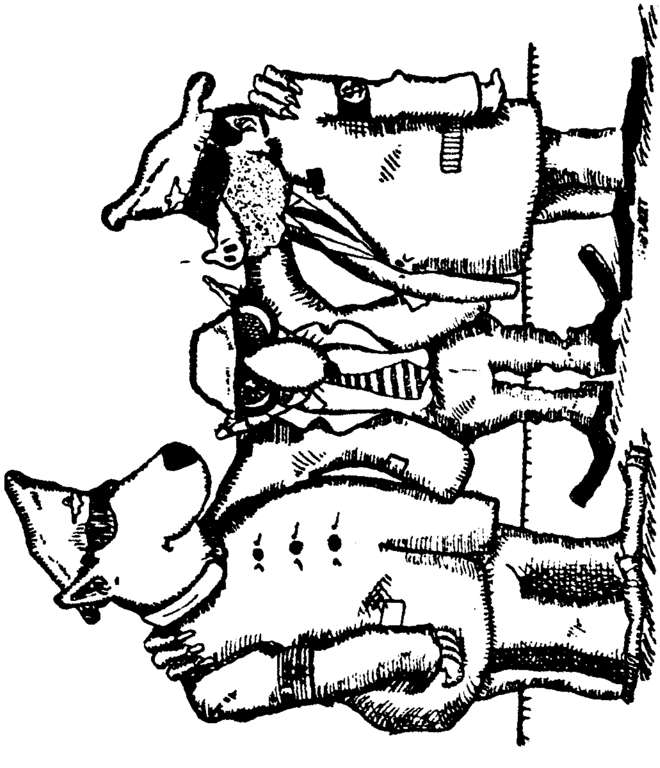
عاد الرجل الى صراخه :

- بوليس ... أليس هناك أي منقذ ؟ .. النجدة النجدة .

كان أحد عناصر الشرطة يمر وهو يمشي بخطى سريعة فركض الرجل وراءه وقال له :

- يا سيدي ... دقيقة واحدة ... هناك جريمة تقترف في مكان قريب ، هلا جئت معي ؟

- لا علاقة لي بالموضوع . ذلك من اختصاص الشعبة الثانية . أنا أعمل في قسم الجوازات .



بانفعال ورعب يهرع الرجل الى هذه الجهة حينا والى الجهة الثانية حينا آخر وصرخ بأعلى صوته :

ـ أيها الرئيس . انهم يقتلون رجلا . النجدة .

كان شرطي قادما من الجهة المقابلة فهرع الرجل اليه وقال :

ـ أتوسل إليك أن تأتي ... هناك جريمة قتل .

ـ لا علاقة لي بالموضوع ... أنا من شرطة المرافقة في وزارة « ... » .

مع مرور الزمن زاد حجم الحشد . هرع الرجل الى الشرطي الذي كان يتحدث مع بائع الفواكه .

ـ أرجوكم يا سيدي .. اسرعوا .. انهم يقتلون رجلا . هناك جريمة قتل .

ـ لا علاقة لي بالأمر ... أنا من شرطة البلدية .

رجال الشرطة متواجدون بأعداد كبيرة ولكن أحدا منهم ، لسوء الحظ ، لم تكن له أية علاقة بالموضوع .

ـ أين أنتم أيها البوليس ؟ بوليس .

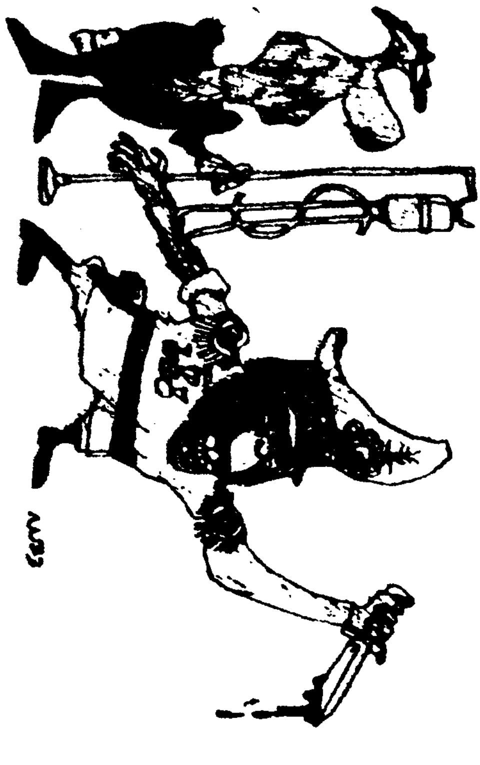
اقترب أحد رجال الشرطة من الرجل الذي بادره بلباقة خوفا من العواقب :

ـ عفوكم يا سيدي الى أية شعبة تنتسبون ؟

ـ الى الشعبة الثانية .

ـ يا للمصادفة الرائعة ... إنهم يقتلون رجلا في الخان القريب من هنا ... هلا أتيتم معي ؟

ـ أنا لا علاقة لي . رغم أنني من الشعبة الثانية فأنا من موظفي



مكتب السرقة .

هرع الرجل الى الساحة القريبة والتصق بأول شرطي لقيه في طريقه :

ـ أرجوك أن تأتي معي ، هناك جريمة قتل .

ـ أنا لا علاقة لي .

ـ ألستم من عناصر الشعبة الثانية ؟

ـ نعم من عناصر الشعبة الثانية ولكنني أحد موظفي مكتب التهريب . لا بد لك من العثور على أحد موظفي مكتب الجرائم اذا أردت أن تصل الى نتيجة .

عاد الى حيث كان ، الى حيث احتشد جمهور كبير من الناس حتى سد الطريق .

أمسك الرجل بشرطي آخر :

ـ هل أنت من الشعبة الثانية ؟

ـ نعم ...

ـ من موظفي مكتب الجرائم ؟

نعم .

ـ الحمد لله ... يا سيد هيا أسرع . ان رجلا يتعرض الان للقتل .

ـ أين ؟

ـ هنا في مكان قريب .

ـ لا علاقة لي أنا .

ـ لماذا ؟

ـ ليست هذه منطقتي ... أنا مرتبط بمنطقة « صورماغير » ...

- ما أن التفت الرجل في حالة من الذعر حتى وجد أمامه شرطيا آخر .

- عفوا ، هل أنت من عناصر الشعبة الثانية ؟

- نعم .

- من مكتب الجرائم ؟

- نعم .

- من المسؤولين عن هذه المنطقة ؟

- نعم ... ولماذا تسأل ؟

- أرجوك يا أخي ... انهم يقتلون رجلا في مكان قريب من هنا .

- أنا لا علاقة لي بالأمر . انني في اجازة هذا اليوم .

اقترب أحدهم من الرجل المذعور وهمس في أذنه قائلا :

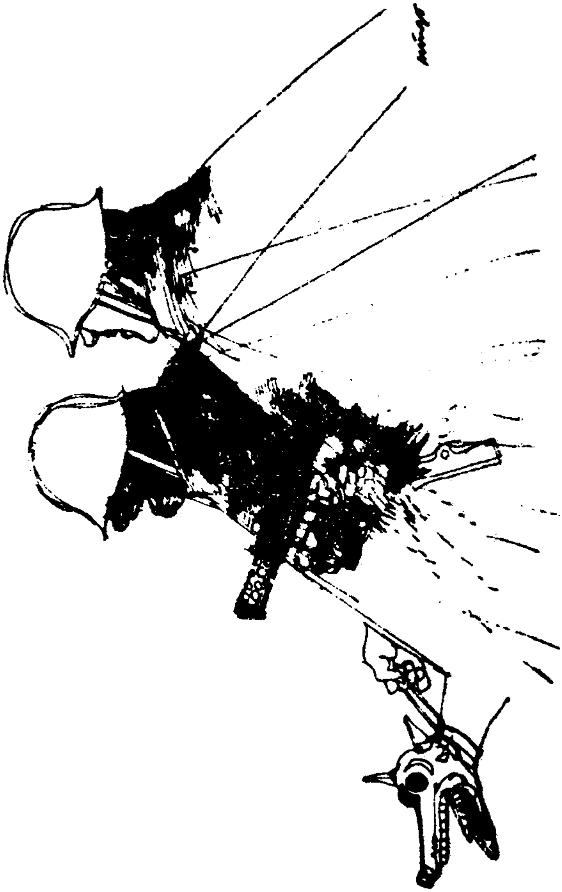
- لقد تعرضت لموقف مماثل . انني أعرف الطريقة الصحيحة التي ينبغي اتباعها في البحث عن الشرطة . اذا كنت تريد الشرطة فما عليك الا أن تقف في وسط هذه الساحة وتصرخ قائلا : « ما هذه النذالة ؟! » .

تقدم الرجل ووقف بين سكتي حافلة الترام وراح يصرخ بأعلى صوته قائلا :

- ما هذه النذالة ؟ .. هل سبق لأحد أن رأى مثلها ؟ ما هذه الحقارة ؟

كان الرجل سيستمر في صراخه غير أن عددا ممن كانوا بين الجمهور انقضوا عليه وأسكتوه قائلين :

- هيا الى المخفر ...



سألهم الرجل :

- ومن أنتم ؟

- نحن من البوليس المدني ، من البوليس السياسي ...

انطلقت الصفارات . لبى صوت الصفارات الشرطي المجاز اولا والشرطي التابع لمنطقة « صورماغير » ثانيا فهرعا الى المكان بسرعة . مع استمرار اطلاق أصوات الصفارات ركض كل من شرطي المرور وشرطي البلدية والخ ...

سأل الشخص الذي أوعز له بأن يصرخ قبل قليل :

- ألست شرطيا أنت ؟

- أنا مفوض في الشرطة .

كانوا يسوقون الرجل الى المخفر مارين أمام الخان الذي كان مسرحا لجريمة القتل .

كان القتيل يتخبط بجراحه .. علق الرجل قائلا :

- حرام .. انه لأمر يؤسف له .

سأله شرطي المرور :

- هل كان واحدا من اقربائك ؟

- لا .. لا أعرفه على الاطلاق .. من منطلق انساني أردت استدعاء البوليس .

قال شرطي البلدية :

- امش بسرعة .. هيا .. دماء الجريح لوثت الشارع . علي أن أعود بسرعة بعد ايصالك إلى المخفر من أجل ضبط هذه المخالفة وفرض الجزاء القانوني .

لا .. لن أقول اسمه

ما أثقل الجلوس الى مائدة واحدة مع أناس لا نعرفهم من قبل !
في تلك الليلة حين دعانا أحد اصدقائنا من الجيران الى بيته لتناول طعام العشاء ، كنت في مثل هذا الوضع الثقيل . اجتمعنا على المائدة عشرة أشخاص من ثلاث أسر . لم يكن بعضنا يعرف بعضنا الاخر من قبل غير أننا كنا جيرانا نعيش في بنايات قريبة في الحي نفسه . الوحيد الذي كنا نعرفه جميعا هو صاحب الدعوة الذي لم يحاول أبدا أن يذيبنا في بوتقة واحدة .

السيد الجالس الى يساري كان ، إما لأنه ثرثار أو رغبة منه

في فتح موضوع للحديث بنية حسنة ، يتكلم دون توقف . وما أن ينتبه الى أن كلامه لا يلفت انتباهنا حتى ينتقل الى موضوع آخر قافزا من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب وبالعكس . في البداية روى تلميحا قصة خداع امرأة لا نعرفها لزوجها . وعلى الرغم من أن مواضيع النساء اللواتي يخدعن أزواجهن والأزواج المخدوعين بصورة خاصة تكون مواضيع مثيرة وجذابة ، فان أحدا منا لعدم معرفتنا بالمرأة لم يشارك في الحديث . وحين رأى الرجل الثرثار أن قصته لم تكن موفقة انتقل الى الحديث عن الأسعار الفاحشة للسمك وعن الألاعيب التي تؤدي الى ذلك رغم الوفرة الهائلة للسمك في المضيق . ولكن هذا الموضوع لم يكن موفقا ايضا . فالمرأة الخادعة والسمك وزيادة عدد اللصوص الليليين في الأيام الأخيرة ، والشعراء العظام الذين لم يعودوا موجودين ، والحادث الذي تعرض له في سيارته .. هذه كانت مواضيع الحديث المختلفة المتنافرة والتي لا تتناسب مع الموقف ..

وفجأة صاح قائلا :

ـ يا للحقارة !

سأله صاحب البيت :

ـ ماذا جرى ؟

ـ ألم تسمعوا بعد ؟ اشترى سيارة اخرى لابنه ايضا .

سيارة له هو ، واخرى لزوجته ، فما الداعي لأن يشتري سيارة ثالثة لابنه الذي ما زال في الثانوية ؟ ثلاث سيارات خاصة لاسرة مؤلفة من اربعة أشخاص !

سأل صاحب البيت قائلا :

ـ من يكون هذا ؟

ـ يقطن هنا قريبا منا ، لا لزوم لذكر اسمه .. لا داعي للاصرار دون جدوى ، لن أصرح بالاسم !

مالت زوجتي على اذني لتهمس فيها قائلة :

ـ ربما كان الحديث عن حقي بيك .

أجبتها قائلا :

ـ هؤلاء عندهم سيارتان فقط ، لا ثلاث سيارات .

ـ ها هم قد اشتروا الثالثة حديثا .

تابع الثرثار كلامه :

ـ لو لم تكن ابنته صغيرة بعد لما تردد في شراء سيارة اخرى لها ايضا ولكنها ما زالت في الثالثة عشرة ...

زوجتي تقول :

ـ هذا يعني أن المعني ليس هو حقي بيك ، بل زوج صديقتنا لمياء .

يتابع الثرثار كلامه :

ـ لو اكتفى بالسيارات لهان الأمر ، فكأن قيامه بشراء طابق في الحربية لم يكن كافيا . سمعت أنه يشيد بناية في أنقرة ، بناية مؤلفة من ستة طوابق .. كيف يتحقق له كل هذا يا صاحبي ؟ أمثاله من الموظفين يكادون لا يستطيعون اداء أجور المساكن التي يقطنونها بالاجرة الا بصعوبة بالغة .

سأل أحد الضيوف :

- معنى ذلك أن هذا الرجل يسكن هنا ؟
- نعم ..
- آه .. ليتني أعرف من هو !
- لا ، لن أتفوه باسمه ، ذلك سيكون من باب التقول على الناس ..

زوجتي موجهة كلامها الي :

- اذا كان المعني موظفا فلن يكون زوج صديقتنا لمياء ، أرجو الا يكون المقصود صبري بيك .
- لا يميز بين الناس ، ولا يقول هذا فقير معدم ، انه يرتشي من الجميع . لو كان يقف عند حدود أخذ الرشوة من الأغنياء فقط لهان الأمر ولكنه ..

احدى السيدات :

- لقد أثرت فضولي بشدة ، من هو هذا يا صاحبي العزيز ؟
- لا حاجة لذكر الاسم . يملك سيارة حنطية اللون ، أما سيارة زوجته فهي بلون الكرز ..

مالت رؤوس الجالسين الى الطاولة بعضها على بعض ، تهامس الحضور فيما بينهم حول المرتشي .

- السيارة التي اشتراها لابنه مؤخرا من نوع شفروليه لونها أصفر ، أصفر فاتح ..

مرة اخرى مال الجميع على آذان الجالسين الى جانبهم :

- ما المانع من ذكر الاسم أيها السيد المحترم ؟
- اعذروني ، لا استطيع البوح بذلك .. أتعرفون لماذا يقوم ببناء

بنايته الجديدة في انقرة ؟ يريدها أن تكون بعيدة كي لا تنغرز في أعين الناس .. كما لو كان الناس عميان صم .. كل ذلك حققه خلال السنوات الثلاث أو الاربع الاخيرة . قبل اربع سنوات كان يتعكز على الناس ويستدين من معارفه .. انه مدين حتى لي أنا ولم يسدد دينه بعد .. انه سافل لم ير له مثيل ! .. سمعت أنه يقوم بتسجيل الطابق الكائن في الحربية والبناية الكائنة في أنقرة باسم زوجته بهدف ابعاد الشبهات . ويزعم أن زوجته ورثت تركة كبيرة .. وهل هناك من لا يعرف زوجة ذلك الرجل ؟ لقد أخذها من البار ، كانت تعمل مضيفة في أحد البارات ، أي كانت زوجة الجميع ..

ومرة ثالثة تجاذبت الرؤوس ، مرة ثالثة التصقت الأفواه بالاذان .

زوجتي هي الاخرى اقتربت من أذني لتهمس قائلة :

- ها ها .. لقد عرفته الان .. انه يتحدث عن سليم بيك .

- عنده ابن واحد ولا توجد عنده بنت ..

كان الجميع يحاولون جاهدين أن يحزروا اسم الشخص وكأنهم يعملون على حل أحد الألغاز المعقدة .

احدى السيدات :

- أكاد أنفجر من الفضول أيها السيد المحترم ، أرجوك أن تتفوه باسم هذا الرجل !

- لا ، أعوذ بالله ! لن أقول اسمه .. أرجوكم ألا تلحوا .. لا لزوم لذلك .. ألم أحدثكم قبل قليل عن الزوجة التي تخدع زوجها . انه زوج تلك المرأة .

نظرا لظهور طرف خيط جديد فقد جرت موجة تهامس اخرى .

- من من الناس يصدق أن مثل تلك المرأة ورثت تركة كبيرة من أمها ؟ فالذين يعرفون أمها كثيرون .. كانت تغسل في البيوت وتقوم بالتنظيف . وما يقال عن ابنه ليس شيئا مشرفا . اذا ركب من هو في مثل سنه سيارة من احدث الموديلات فان النتيجة معروفة سلفا . انه أشقر كالأوروبيين في حين أن أمه سمراء وأبوه اسمر غامق ..

زوجتي تقول :

- عرفته هذه المرة .. انه زوج خاندان ..

يتابع الثرثار كلامه :

- شعر أشيب ، تجاوز الخمسين من عمره ..

- زوجته ؟

- لا ، الزوج ، زوجته في الأربعين ولكنها تبدو أقل من الخامسة والثلاثين . انها بدينة جدا ، قصيرة القامة ..

احدى الحضور لم تعد تحتمل وصاحت بفرح من اهتدى الى حل اللغز :

- ها ها ! .. هذه آتين .. انها هي ، أقسم بذلك ..

التفت الثرثار اليها وقال :

- تصبغ شعرها باللون الأحمر ..

عند ذلك أحست المرأة التي عبرت عن الفرح قبل قليل بالخيبة اذ قالت :

- اذن ليست هي .

وتابعت اعتصار دماغها .

ـ أتوسل اليكم ، اذن ، أن تقولوا اسمه !

ـ لا ، ليس هذا من عادتي ابدا ، اسمه لا يهمنا ، ما الحاجة اليه ؟! .. نعرفه جميعا .. اسمه غير هام .. قيل أنه كان صديقا لأحد الوزراء في وقت من الأوقات من بعيد لبعيد .

يا سيدتي ، هذا الشخص يجمع مختلف الصفات غير الحميدة . انه يمارس ايضا عمليات القوادة والدعارة ولكن على مستويات عليا .. لذا يتمتع بمكانة مرموقة في المجتمع الراقي ... وما أكثر ما يتأنق في الملبس ! صيفا وشتاءا ، حتى في أشد الأيام قيظا ، يلف رقبته بربطة عنق ، وحذاؤه يبقى باستمرار متألقا كالمرآة .. درهمين في نواة واحدة ..

أخذ وضعية بأنه يريد أن يقول : « ألم تتعرفوا عليه بعد ؟ » ونحن جميعا تملكنا فضول طاغ . وكلما سألناه عن اسم الرجل كان يرد قائلا :

ـ لا تلحوا ، أرجوكم ، اقسم أنني لن أقول اسمه . أرجوكم لا تضغطوا علي .

ـ هل هو طويل القامة ؟ قل لنا ذلك على الأقل ..

ـ لا ، انه قصير القامة ، وهو لذلك يكثر من ارتداء الألبسة المخططة بخطوط طويلة .

مع مرور الوقت كان الذين يصرخون قائلين : « ها قد عرفته ! » يتكاثر عددهم ولكنهم ما أن يتابع الثرثار وصفه حتى كانوا يدركون أنهم كانوا على خطأ .

ـ ويقال ايضا انه صاحب سوابق ، بل وقد دخل السجن ذات مرة بسبب الكذب والتضليل أو التزوير ، ثم خرج في اثناء استمرار المحاكمة بموجب قانون العفو قبل صدور الحكم عليه .

باختصار هذا الرجل يتمتع بكل النذالات ..

بدا على الثرثار أنه كان يزداد غضبا منا شيئا فشيئا لاخفاقنا في معرفة الشخص الذي أبى أن يبوح باسمه كي لا يتهم بالتقول على الناس .

ـ يسكن في الطابق الثالث من بناية ذات اربعة طوابق ، البناية في الزاوية ، مقابل دكانة السمان .. بناية موشحة بالموزاييك .. وحديقة البناية ملأى بشجيرات للزينة ذات أوراق كثيفة وخضراء ..

جميع من في الصالة صاحوا دفعة واحدة قائلين :

ها ها .. انه شاكر بيك وزوجته سلمى ..

ثم أخذوا نفسا عميقا وشعروا بالراحة .

أما الرجل الثرثار فتابع يقول :

ـ ماذا يعنيني من الأمر ؟ المهم أنني لم أكن أنا الذي بحت بالاسم .. لا حاجة لذكر الاسماء ، لا يهمني الاسم . لا ، عبثا تحاولون ، عبثا تلحون علي ، فأنا لست مستعدا لأن أقول اسمه .

علي بيك التاريخي

كانوا ثمانية متهمين بجريمة واحدة مشتركة جاؤوا الى السجن ذات مساء قبيل موعد اغلاق الأبواب . تم توزيع النزلاء الجدد على الاسرة الطابقية الخالية .

كان أكثر هؤلاء المتهمين الثمانية لفتا للأنظار شخصا يدعى علي بيك . لم نتمكن من معرفة أي شيء عنه سوى الاسم . هو صامت باستمرار صمت القبور ، انه نائم على الدوام ، أو يعيش

حياته وكأنه نائم . استقر منذ وصوله في سريره العلوي كدجاجة احتضنت عددا من البيض ، ولم يبرح مكانه الا عند الطعام أو الذهاب الى دورة المياه . وخلال بقائه حيث هو في سريره ظلت عيناه مغمضتين . بين الحين والاخر كان رأسه يهوي فوق صدره . بقي هكذا لا يفتح عينيه ولا ينطق بحرف واحدٍ .

أما أنه يحمل اسم علي بيك فقد عرفنا ذلك من اصدقائه . بعد حوالي اسبوع استطعنا أن نهتدي الى السبب الذي أوصل هؤلاء الثمانية الى هنا . لقد تحدثوا وهم في المقهى الكائن في حيهم كلاما طالعا نازلا فبادر عدد من خصومهم السياسيين الى كتابة تقرير عنهم يقول أنهم « شتموا حكومتنا وتفوهوا بكلمات تسيء الى السلطة » . ظل المتهمون السبعة من المجموع عدا علي بيك يقسمون مصرين على أنهم لم يقولوا كلمة واحدة ضد الحكومة أما علي بيك فقد بقي صامتا . كان الاصدقاء السبعة يشفقون على علي بيك أكثر من حزنهم على أنفسهم لأن علي بيك لم يأت في ذلك اليوم الى المقهى . صحيح أنه يمر بالمقهى مرة في الاسبوع أو كل عشرة أيام غير أنه هناك ايضا ، أي في المقهى ، كان كما هو الان ، يجلس بصمت كما لو كان نائما ولا يتبادل أية كلمة مع أحد بل يشرب الشاي ويسترخي فترة من الزمن ثم يغادر المقهى .

نسي الاصدقاء همومهم وراحوا يتقدون حسرة على علي بيك ربما لأنه طاعن في السن .. فقد تجاوز السبعين من العمر وان بقي قوي البنية ذا عافية . لم يتدخل في أية شؤون عامة أو خاصة طوال حياته حسب أقوال اصدقائه ، ولم يبد أي اهتمام بالسياسة وعلى

الرغم من لقب ال « بيك » الذي أقحموه على اسمه لم يكن يعرف حتى القراءة والكتابة . كان اصدقاؤه يقولون :

ـ « على الأقل نحن حزبيون .. أما هذا المسكين فلا علاقة له بأي حزب .. »

كان واضحا من ثيابه أنه فقير . فمرفقي كمي جاكيته تغطيهما رقعتان كبيرتان ونهايتا الكمين مهترئتان اما ركبتا البنطال العتيق فقد تحولتا الى ما يشبه الغربال ...

مضت الأيام فالأسابيع وعلي بيك مستقر في فراشه نائما أو غارقا في النعاس . ما أشبهه بتمثال بوذا الجامد والصامت ! ...

لم يتكلم ابدا ولم يشارك في أي نقاش . لم يفتح علي بيك ولو لمرة واحدة ليرى ماذا يجري في المهجع رغم كل الصخب والضجيج المترافق مع اللعب واللهو والمشاحنات التي كانت تملأ اجواء المهجع معظم الوقت ..

في حوالي الساعة الثانية عشرة ذات ليلة أبلغنا علي بيك وهو ما يزال حيث هو دون أن يندس تحت بطانية كما هي العادة بل ظل مستندا الى الوسادة وقد أغمض عينيه .

كان اصدقاؤه المجتمعون فوق السرير الكائن تحت سريره يتحدثون . قال أحدهم وهو في حوالي الأربعين من عمره :

ـ « ما جدوى الحزن والأسف ؟ .. لا حاجة لذلك . ليس لنا الا الصبر على ما كتب لنا . ومن جهة اخرى صدقوني أن هذه الحادثة كانت مفيدة بالنسبة لي . ان حياتي خالية من أية واقعة استطيع أن أرويها لأطفالي . كان أبي على سبيل المثال يحدثنا عن ذكرياته أيام

خدمته في الجيش ، كيف ذهب الى جنة قلعة كيف قاتل وكيف جرح .. كما أن عمي كان يحدثنا عن أشكال معاناته في الحرب العالمية الاولى وكيف وقع في الأسر . وماذا استطيع أنا الان أن أقول لأولادي ؟ لا شيء .. أما بعد الان فأنا قادر على الحديث أمام ابنائي عن كيفية وقوعي في السجن وعما عانيته فيه » .

تضاحك الاصدقاء الاخرون لدى سماع هذه العبارات . بقي علي بيك في السرير العلوي بين النوم واليقظة .

أما الرجل الذي انتشى لأنه قرر أن يروي قصة حياته في السجن كمغامرة مثيرة أمام ابنائه فقد تابع كلامه قائلا :

- « ومما لا شك فيه أن التاريخ سيسجل هو ايضا هذه الأحداث ذات يوم » .

ما أن سمع علي بيك الذي ظن أنه نائم هذه العبارات الاخيرة حتى فتح عينيه ومد رأسه نحو الجالسين في السرير السفلي وسأل بلهفة لم يعهدوها فيه :

- « هل سيقوم التاريخ بتسجيل ما حدث ؟ »

- « ألم تكن غارقا في النوم ؟ »

- « كنت أصغي اليكم . هل سيرد ذكر لهذه الأحداث في التاريخ ؟ »

- « دونما ريب . كيف لا ؟ »

قالوا هذا رغبة منهم في المزاح والسخرية .

نزل علي بيك عن علياء سريره الطابقي العلوي وراح يزرع أرض المهجع جيئة وذهابا . لم يبد مثل هذا النشاط والحيوية منذ

دخوله السجن . من حين لاخر كان يقترب من أحد اصدقائه ليسأله :

ـ « سيرد ذكر لاسمائنا في التاريخ أليس كذلك ؟ »

ـ « لا شك في ذلك ، يا علي بيك ! »

« هل سيرد اسمي أنا ايضا في صفحات التاريخ ذات يوم ؟ »

ـ « بالطبع ... »

ظل علي بيك يقطع المسافة الواقعة بين جداري المهجع بسرعة كما لو كان يريد الوصول الى هدف معين دون تأخير .

بعد منتصف الليل انسحب جميع نزلاء المهجع الى النوم غير أن علي بيك لم ينم في تلك الليلة قط بل ظل يمشي في المهجع من زاوية الى الزاوية الاخرى .

وحين فتحت أبواب المهاجع في الصباح خرج الى الباحة ليمشي فيها ايضا بسرعة أكبر ولمسافات أطول . وما أكثر ما كان يسأل اصدقاءه :

ـ « سيسجل التاريخ اسمي ، أليس كذلك ؟ »

وما أن يتلقى جواب : « بالطبع ، وهل في هذا شك ؟ » حتى كان يتابع الكلام وهو يقول :

ـ « كم كنت مصيبا اذ أتيت الى المقهى في ذلك اليوم ، وكم أصبت حين تحدثت ؟! »

لم يستطع اصدقاء علي بيك السبعة رغم محاولاتهم المتكررة والدؤوبة أن يقنعوا صاحبهم بأنه لم يأت في ذلك اليوم الى المقهى ولم يقل شيئاً .

بعد تلك الليلة عاد علي بيك أكثر شبابا ينضح بالحيوية والنشاط .

أصبح يمشي في الباحة مبعدا ذراعيه عن جسمه نافخا صدره مرفوع الرأس .

أقلع علي بيك عن صمته القديم ولكنه في الوقت نفسه كان بعيدا عن الثرثرة والاكثار من الكلام الفارغ . فبما أنه غدا شخصية تاريخية صار يقول حتى الكلمات الاعتيادية كما لو كان يتلو بيتا من الشعر أو يطلق قولا مأثورا . اذا سئل : « كيف حالك يا علي بيك ؟ » مثلا كان يجيب بصوت متزن ووقور وبعبارات عميقة ذات دلالات هامة : « لا بد للانسان من أن يصبح جيدا طالما سعى لأن يكون كذلك »

واذا دعاه أحد اصدقائه الى تناول الطعام بادر علي بيك الى الرد وهو يرفع يده :

- « على الانسان أن يأكل ليعيش لا أن يعيش ليأكل .. »

واذا تعثر بحجر في أثناء مشيه السريع في الباحة وترنح فان علي بيك كان يسارع الوقوف وقفة مستقيمة ، ليصوغ حكمة جديدة وهو يمد سبابته الى الأمام :

- « على ذلك الذي تعثرت قدمه بحجر أن يحرص على سلامة رأسه ! »

أصبح السجناء يلقبونه باسم : علي بيك التاريخي . وفي حقيقة الأمر أمضى علي بيك التاريخي أيامه في السجن مقلا في الكلام أو متفوها بالعبارات العظيمة ذات المعاني الكبيرة حين يتكلم .

نتيجة للمحاكمة برئت ساحة اصدقاء علي بيك السبعة . أما علي بيك التاريخي فقد حكم عليه بالسجن على الرغم من أن الشهود أفادوا أمام هيئة المحكمة بأن علي بيك لم يأت في ذلك اليوم الى المقهى فكيف يكون قد قال شيئا ضد الحكومة . ولكن علي بيك التاريخي ظل ينفخ صدره ويقول متباهيا :

- « أتيت الى المقهى . ان المقاهي هي أندية الحضارة . لقد تحدثت هناك لأن الانسان ما هو الا ناطق . وقد قلت .. » ويتابع خطبته العصماء معترفا باقتراف كل الجرائم المسندة اليه مما أدى الى إنزال العقوبة به .

ان علي التاريخي سعيد جدا بحياته الان . يتجول في مهاجع السجن وباحاته بخطوات ثابتة وقوية ويتكلم كما لو كان يلقي خطبا ويتفوه بالأقوال العظيمة بصوت متزن ووقور . لقد آمن ايمانا راسخا بأن التواريخ ستتحدث عنه . كم هو مسرور وكم هو مطمئن البال !! ..

كلبٌ راقٍ

اولا تسلق المزراب . ومنه قفز الى سلم الحرائق . وفي اثناء انتقاله الى الشرفة تجمعت حزمة ضوء من النور المتسلل من نافذة للطابق الرابع . قطع الشاب البقعة المضيئة بسرعة ثم كمن في الظلام وراح ينتظر . لم يسمع أية أصوات .

كان خائفاً . تلك كانت مغامرته الليلية الثالثة ، ففي الأولى تسلل الى بيت أحد الأغنياء . أكل حتى الشبع وخرج . وفي اليوم التالي كانت الصحف قد كتبت عن تلك الحادثة بوصفها مثيرة وجذابة لأن بطلها كان قد خرج من بيت الثري دون أن يأخذ معه شيئاً بعد أن أكل حتى شبع . وفي المغامرة الليلية الثانية كاد يتعرض للاعتقال .

فقد التقى في البيت الذي دخل اليه ظانا أن ليس فيه أحد برجل تجرد من ثيابه مرعوب . وقبل أن يدير ظهره لينطلق هاربا فاجأه الرجل وهو يتأتىء :

ـ لا ... لا ... ت ... ت ... تظنوا .. أنني هنا ... لسوء ... ثم ظهرت امرأة لتصيح قائلة :

ـ انه لص !

فرد الرجل قائلا :

ـ ظننت أنه زوجك ..

وطرد الشاب .

هذه كانت مغامرته الليلة الثالثة ، كان خائفا . لم يكن يحب العمل الذي كان يقوم به . فكر أنه لن يمارس هذا العمل الا مرة واحدة . كان هدفه أن يضرب ضربة كبيرة من البيت الذي تسلل اليه ثم يقلع عن السرقة ! وبما يسرقه في هذه المرة كان ينوي أن يبدأ عملا يربح منه ربحا وفيرا .

كان يعتزم تسديد قيمة الأشياء التي سرقها فيما بعد ، تسديد قيمة كل شيء سرقه .

كان الشاب خفيف الروح واسع الخيال . وكان يحلم كثيرا وهو في الطرق أو في الحدائق العامة . ومن الأحلام التي كثيرا ما كان يغرق فيها هذا الحلم :

ـ يا سيدي الكريم ، هل تعرفونني ؟ كيف لكم أن تعرفوني ؟

لا ، لا تعرفونني . أتذكرون أن لصا دخل الى بيتكم في العام الماضي ؟ ذلك اللص هو أنا . الحاجات التي سرقتها من بيتكم في تلك



الليلة بعتها بألفين وثمانمائة ليرة . ماذا ؟

تقولون : كانت تساوي عشرة الاف ليرة ؟ لا شك أنها تساوي مثل هذا المبلغ . غير أنني ، لأنني لص ، اضطررت لأن أتخلى عنها بثمن بخس . في الأساس لم أكن أعرف قيمة تلك الأشياء ...

على أي حال ، أنا الآن آت الى هنا لتسديد قيمة حاجاتكم . تفضلوا ، خذوا هذه عشرة الاف ليرة . وأرجوكم أن تتفضلوا بقبول هذين الألفين من الليرات ايضا . فهذا المبلغ الأخير هو فائدة العشرة الاف ليرة في السنة . أنتم لستم بحاجة ؟ لا بأس تبرعوا بالمبلغ لاحدى الجمعيات الخيرية . أعتذر عن ازعاجكم . سامحوني ! ... أما الان أنا انسان شريف . بعت الاشياء التي سرقتها منكم وأصبحت صاحب رأسمال وعملت بالمبلغ الذي حصلت عليه . وفقكم الله !

لو جئت عندئذ أطلب مثل هذه المساعدة منكم فهل كنتم مستعدين لتقديمها الي ؟ لا أظن . وكيف تعطون شخصا لا تعرفونه ثلاثة الاف ليرة ؟ ها قد عدت الان بعد أن أصبحت رجلا محترما بفضلكم ، أعمل وأربح من عملي بشرف . الأمر يعود اليكم . تستطيعون تسليمي الى الشرطة . افعلوا ما يجلبه عليكم وجدانكم . ان شئتم سامحوني وان أردتم سلموني الى الشرطة . أنا لست هاربا ، افعلوا كما يحلو لكم . ولكنني أريدكم أن تعرفوا أنني تعذبت أنا الاخر كثيرا . فتأنيب الضمير أكبر عذاب . لو كان هذا المال مالي الخاص لما اشتغلت بكل هذه الجدية على ما أظن . أنا أعرف مدى ما احتملته خلال هذه السنة . عملت كثيرا كثيرا جدا ، لأسدد هذا المبلغ لكم قبل يوم . وتسألونني : ماذا لو لم أكسب عندئذ سأضطر لأن

أسرق مرة اخرى لأحاول عملا جديدا .

آخ يا سيدي ، ليتكم تعرفون ما من أحد يريد أن يسرق . ولكن ما العمل ؟ هل السرقة عمل جيد ؟! لا أحد يعرف مدى حقارة السرقة مثل اللصوص .

تسلل الى زاوية الشرفة المظلمة ليكمن فيها غارقا في أحلامه . أمامه جسم غريب ، تلمسه بيده فوجده نمليه ...

سبق لأحد اصدقائه اللصوص المحترفين أن قال له :

- يفكر الجميع كما تفكر أنت قبل أن يسرقوا ولكن أحدا منهم لا يعيد ما سرقه فيما بعد .

تلمس باب الشرفة بيده ، كان مغلقا . نهض من مكانه شيئا فشيئا . مد يده . زجاج النافذة مكسور وفيه ثقب يمكن لليد أن تمر منه . رفع كم سترته عن ذراعه . أدخل يده . سحب مغلاق النافذة . يا للظلام ! كم هو شديد ! ... ربما كان هذا هو المطبخ . مشى . اصطدم بشيء . أشعل عود الثقاب :

من الومضة الاولى استعرض سائر جهات المكان ثم اطفأ الثقاب بسرعة . كان قد رأى الباب . فتحه . هواء ساخن لف جسده . دخل الى غرفة . كاد قلبه يتوقف عن الخفقان . كان شخصان يتحدثان في الغرفة . على الفور نزل على ركبتيه . لم يكن الشخصان قد رأياه . وهل كان من الممكن أن يستمرا في حديثهما هكذا لو رأياه ؟ شيئا فشيئا اعتادت عينه على الظلام . كان قد تقدم حتى أصبح أمام السرير . انبطح على الأرض وراح يزحف حتى صار تحت السرير . الشخصان اللذان كانا يتحدثان : رجل وامرأة في

السرير يتحدثان .

كان يخاف أن يتنفس . لو قفل راجعا ... وماذا اذا رأياه ؟! أفضل حل هو أن يبقى حيث هو وينتظر الى أن يناما . لا يبدو أنهما سينامان . وما أكثر ما كانا يتكلمان .

المرأة : أنا استطيع أن أهرب يا حبيبي ، في المرة الماضية هربت مئتين وخمسين غراما .

الرجل : وماذا لو ألقي القبض عليك ؟

المرأة : لا تخف

الرجل : اياك أن تبوحي باسمي !

المرأة : أمجنون أنت ؟ في المرة الأخيرة كنت قد سافرت مصطحبة زوجي ، جلبت معي ثمانية وعشرين الف دولار بالتمام والكمال . لم يشك بي أحد ولو مجرد شك .

أطلق الرجل صفرة اعجاب وقال :

ـ : ثلاث مئة الف ليرة في السوق السوداء .

المرأة : وماذا ظننت ؟

الرجل : يا لك من امرأة عظيمة !

لثم كل منهما فم الاخر ....

بعد ذلك صار صوت التنفس العميق المرافق للنوم مسموعا .

رأى الشاب جسما أبيض تحت السرير ، جسما أبيض يكسوه الشعر . واضح أنها فروة . قرر أن يخرج آخذا معه هذه الفروة . نعم إنها فروة بيضاء ملأى بالدفء ، ناعمة ، ذات شعر طويل . مد يده فأمسك بالفروة وشدها اليه . راحت الفروة تتحرك بين أصابعه وبعد

ذلك سمع زمجرة خفيفة :

- غ غ غ غ

لو لم يسحب يده فورا لعضها الكلب . أفاقت المرأة من نومها وقالت :

- اسكت يا جولي !

- غغ غ غ !

- قلت لك اسكت يا جولي !

سكت الكلب ذو الشعر الأبيض .

الرجل : - أريد أن توقظيني باكرا غدا .

المرأة : لماذا ؟

الرجل : عندي قضية تتعلق باحدى الفواتير .

المرأة : ستأتيك مصيبة من جراء هذه الفواتير المزورة . أنا خائفة .

الرجل : لا حاجة للخوف .

المرأة : أرجوك أن تكون شديد الحذر .

الرجل : ألم أقل لك أنني كثير الحرص واعرف كيف أتصرف ؟

المرأة : صبري ايضا كان حريصا ولكنه الان يتسكع أمام المحاكم .

الرجل : ذلك نتيجة لحماقة صبري نفسه . مثل هذه الأمور لا تمشي الا اذا عرف المرء كيف يشسم من لهم علاقة .

كم من مرة نصحت صبري ! أنا قطعت الماء من رأس النبع . له خمسون ليرة من الهواء . لا بد من رؤية الأشخاص الاخرين ذات

اليمين وذات الشمال لضمان سير العمليات .

المرأة : انك رجل مخيف !

لثم كل منهما فم الاخر في قبلة حارة .

ومرة اخرى بدأت أنفاس النوم تنتشر . وما أن حاول الشاب أن ينهض ببطء بعد أن أدرك أنهما غرقا في النوم حتى ذكر الكلب :

- غ غ غ غ

كان الكلب قد فتح عينيه . كانتا تتألقان في الظلام . انه كلب بيتي . من الواضح أن سبب عدم انقضاضه على الشاب وعدم عوائه عليه هو تردد الكثير من الغرباء على البيت ، ولكنه ظل يزمجر مغمغما كلما أتى أية حركة .

قال بصوته الذي غدا خشنا من النوم :

- اخرسي هذا الكلب !

المرأة : اسكت يا جولي !

كان الكلب يفهم الكلام ، سكت ، أسند رأسه الى قائمتيه الأماميتين وأغمض عينيه .

الرجل : طار نومي !

المرأة : أعلم يا حبيبي ، لو أن هذا العجوز الذي هو زوجي فطس ...

الرجل : لا يبدو أنه سيفطس ، له سبعة أرواح . كم تبلغ ماليته تقريبا ؟

المرأة : اوو .... ! هذه البناية وحدها تساوي مليونين .

الرجل : وكيف جمع كل هذا المال ؟

المرأة : في كل من أصابعه العشرة مهارة . هل تعرف كيف تسلبط على هذه البناية ؟ يقال ان صاحبة هذه البناية الأصلية كانت عجوزا ليس لها أحد .

خدع المرأة قائلا لها أنه سيتزوج منها . جاء الى البيت بموظفي دائرة الطابو زاعما أنهم موظفو دائرة تسجيل الزواج . من شدة المرض لم تكن المرأة قادرة على الخروج من الفراش .

سألها الموظفون : هل انت موافقة ؟ فأجابت : نعم ! بصمت العجوز على عقد بيع البناية وهي تظن أنها تتزوج . وبعد ذلك رمى بها الى الشارع .

الرجل : لو كنت مكانك ...

المرأة : ماذا كنت تفعل ؟

الرجل : أسمم هذا اللعين .

المرأة : أنا ايضا أفكر بذلك . ولكن ...

الرجل : لا تخافي ! سندبر مقلبا بحيث يكون قد انتحر .

المرأة : يا لك من رجل مدهش ! لثم كل منهما فم الاخر في قبلة ... ثم تصاعدت أنفاس النوم .

أقلع الشاب عن السرقة ، لم يعد يفكر الا بالخلاص من هنا . هو قادر على الرحيل دون ايقاظ الرجل والمرأة . فالسجاجيد سميكة ولا تحدث صوتا على الاطلاق ، ولكن الكلب كان يزمجر كلما أتى بحركة مهما كانت طفيفة . حرك ساقه حركة صغيرة جدا . على الفور فتح الكلب عينيه .

توقف الشاب عن الحركة . صار هو والكلب ينظر كل منهما

الى الاخر . مضت فترة وهما كذلك . ثم أغمض الكلب عينيه . ظل الشاب جالسا فوق ركبتيه لخداع الكلب وتضليله . ومن ثم تحرك حركة صغيرة .

- غ غ غ غ

المرأة : ماذا جرى لهذا الكلب الليلة ؟ هل جن جنونك يا جولي ؟ لماذا لا تنام ؟!

الرجل : سأخنق هذا السافل ، هل يفعل هذا ظنا منه أنني غريب ؟

المرأة : لا ، انه أليف ولا يشعر بالوحشة من أحد . انه انساني جدا ولكن طباعه ساءت هذه الليلة لسبب ما على ما يبدو ... ليست هذه هي المرة الأولى التي يراك فيها ... لا يقول شيئا حتى للذين يراهم للمرة الأولى .

الكلب : غ غ غ

الرجل : لماذا اذن يستمر في زمجرته ؟

المرأة : ليتك تعرف يا حبيبي ! فهذا الكلب غريب جدا . لقد أصبح راقيا من طول بقائه مع أناس الطبقات الراقية .

ضحك الرجل وقال :

- دعك من هذا الكلام ! كيف يكون الكلب ايضا راقيا ؟

المرأة : اقسم لك بالله ... لا يحدث أي صوت ازاء كل هذا العدد الكبير من الناس الذين يزوروننا . أما عندما يرى شخصا من الرعاع ، فيفهم ربما من رائحته ويبدأ بالزمجرة والعواء .

الكلب : غ غ غ غ

المرأة : على سبيل المثال لم يألف البواب طوال كل هذه السنوات . وهو يعوي ويهاجم الحلاب وبائع الخضار ومن اليهم ممن يمرون في الشارع . على الفور يفهم تلك الفئة من اللصوص والأاوغاد .

الرجل : لقد حل الصباح ! ... مساء الغد علي أن أسافر الى أنقرة لمتابعة القضية الاخرى .

المرأة : هل رضي الرجل ؟

الرجل : كيف لا ؟ أعطيته عشرة الاف ... رفض .

سأعرض عليه خمسة عشر الف هذه المرة وإذا رفض فعشرين . في النهاية سيقع دون ريب . لكل مستواه الخاص به . طالما أن للانسان فما هو مضطر لأن يأكل ... المرأة : انك رجل عظيم !

قبل كل منهما فم الاخر ... أنفاس النوم تصاعدت . حين هم الشاب بثني ركبته فتح الكلب الأبيض عينيه وبدأ يغمغم . والشاب الذي أدرك أن لا خلاص من الكلب عزم على الفرار مهما كلفه ذلك من ثمن .

الكلب : غ غ غ غ

المرأة : اسكت يا جولي !

نهض الشاب واقفا واندفع منطلقا بسرعة صافقا الباب وظل الكلب :

- غ غ غ غ

صاحت المرأة قائلة :

- هناك شخص .

قفز الرجل من الفراش . أشعل الضوء .

كان اللص قد وصل الى الممر . كان الكلب يعوي . صاحت المرأة بأعلى صوتها :

- النجدة ! لصوص ! لصوص !

انطلقت الصفرات في الشارع . ما زالت المرأة تصيح والرجل يصيح ، والكلب يعوي .

انقض الشاب على الباب المؤدي الى الشارع . كان مقفلا ، يأبى أن ينفتح . لم يخطر بباله أن يعود من حيث جاء . وكان قد أضاع نفسه في الظلام .

أول الأمر وصل بواب البناية وحارسها . الرجل فتح الباب ، أما الشاب فكمن في الزاوية دون حركة .

الحارس والبواب دخلا . ظل الكلب يعوي .

المرأة : ها هو اللص !

فحص البواب الرجل من قمة رأسه الى أخمص قدمه وقال :

تفو عليك ! شاب بحجم الحمار ! لماذا لا تقوم بعمل شريف وتكسب قوتك ؟!

أما الحارس فأنزل صفعة على وجه الشاب قائلا :

- ألا تخجل من السرقة ؟

كان الكلب يعوي مرة على البواب واخرى على الحارس وثالثة على الشاب .

المرأة : ألم أقل لك أن جولي يعرف هؤلاء الفلتانين الحقراء

من رائحتهم ؟

البواب : السيد ليس في البيت ايضا . أحسنتم اذ أفقتم من نومكما .

المرأة : نحن لم نفق . جولي هو الذي شعر به . ثم احتضنت الكلب وراحت تقول وهي تلاطفه :

اسكت يا جولي

وعندئذ رأى الرجل الذي كان يرتدي بيجامته أن المرأة لم تكن تلبس سوى الصدرية ، فقال : ستبردين ! غطي جسدك بشيء .

فيما كان البواب والحارس وقد أمسكا بالشاب بينهما ينزلان الدرج كان الكلب الذي شدته المرأة الى صدرها العاري ما يزال يعوي .

الرجل : لم أر كلبا على هذا المستوى من الرقي ! كيف يستطيع أن يتعرف على اللصوص والأوغاد من رائحتهم ؟!

القنبلة النيوترونية : انقاذ للحضارة

كانت الدروس التي استخلصها الناس ، ولا سيما العقلاء منهم ، من النتائج المخيفة للحربين العالميتين الأولى والثانية دروسا بالغة الخطورة . فقد ثبت بعد كل من هاتين الحربين أن الآثار التاريخية التي هي من صنع الحضارة والمنشآت الكبيرة والمعابد

الخالدة والجسور العملاقة والمتاحف الرائعة التي تسبغ حلل الشرف والبهاء على حضارتنا العزيزة ، والمصانع التي هي نتاج التقدم في سائر مجالات العلوم ومنحته مثل هذا التقدم في الوقت نفسه ، أن مباني المدارس والجامعات كلها وأن سائر المكتبات التي تختزن في بطونها جميع الوثائق التاريخية التي تخص الحضارة ، وأن كل المدن والعواصم الكبيرة تعرضت للدمار والخراب . وما هذه الأشياء التي تعرضت للدمار والخراب من جراء الحرب الا الحضارة عينها .

لقد كان اصلاح تلك المباني الحضارية والأوابد الرائعة التي تعرضت للتدمير في كل من الحربين الأولى والثانية واعادتها الى ما كانت عليها قبلهما أمرا بالغ الصعوبة فضلا عن كونه باهظ التكاليف .

كثيرة هي الجهود التي بذلت من أجل ايجاد الحل المناسب لهذه المسألة المعقدة وكثيرة هي الأبحاث التي تمت حول ذلك . وبعد الجهود الكبيرة والأبحاث المضنية تم التوصل الى الحل : لا بد من صنع سلاح يقتل العدو ولكنه في الوقت نفسه لا يصيب الصخور والتراب والاسمنت والحديد . وما ذنب الصخور والتراب والاسمنت والحديد ، هذه المواد المسكينة التي تؤلف أوابد الحضارة ، حتى تتعرض للتدمير والتخريب ؟ ... ونتيجة لكل تلك الجهود الكبرى المبذولة والأبحاث العلمية المعقدة والطويلة التي تفرغ لها أعظم العلماء تم التوصل أخيرا وبنجاح منقطع النظير الى اختراع قنبلة النيوترون . ومن الواضح أن القنبلة النيوترونية هي السلاح الوحيد القادر على حماية الحضارة وانقاذها وهي بالتالي معجزة العصر

الكبرى . هل تستطيعون أيها القراء الأعزاء أن تتصوروا معي ، وان كان مثل هذا التصور صعبا جدا ، أن هذه القنبلة النيوترونية القادرة على التسلل في كل زوايا وخدوش الأبنية التي هي من منجزات الحضارة لتقتل كل الكائنات الحية الموجودة فيها سوف لن تصيب طلاء تلك المباني وزخارف نوافذها وسجاجيدها الممدودة على الأرض وحرائر الستائر الثمينة وأطر المرايا المزخرفة ولوحات الجدران النادرة وطلاء الموبيليا الجميل ، سوف لن تصيب أية مادة من هذه المواد بأي أذى حتى أن زجاج النوافذ لن يهتز ولن يتأثر ؟ . فمن كان منكم يستطيع أن يتصور سلاحا أكثر حضارية وأشد انسانية من هذا السلاح العظيم ؟ اننا ـ نحن الذين سنبقى أحياء بعد حرب كهذه ـ مدعوون للاستمتاع بالمدن الكبيرة الخالية التي لم تتعرض جدرانها ولو للخدش ، مدعوون للاستمتاع بالمباني الفخمة التي لا يوجد فيها أحد وهي مفروشة بأحسن الأثاث ، مدعوون للاستمتاع بالبواخر الراسية في الموانىء دونما بحارة ، مدعوون للافادة دونما حساب من المتاحف والمدارس والجامعات والمكتبات الباقية دون بشر . ولن يقع على عاتقنا نحن الذين سنرث كل هذه المعطيات الحضارية سوى مهمة تنظيفية صغيرة ألا وهي مهمة تجميع الأجساد البشرية ، وأكوام العظم والرماد المتبقية من الأجساد البشرية وازالتها بغية تطهير عالمنا الجميل المزدان بانجازات الحضارة .

هناك من يقف ضد استخدام القنبلة النيوترونية أكبر معجزات عصرنا وسبيل خلاص حضارتنا بحجة أنها تقتل البشر . ألم يخطر لهؤلاء أن يسألوا أنفسهم هذا السؤال : ما جدوى القنبلة التي لا

تستطيع أن تقتل البشر وتعجز في الوقت نفسه عن تدمير الأبنية وتخريبها ؟ إنهم يخلطون بين القنابل ومرشات مبيدات الحشرات . عليهم أن يتذكروا أن القنبلة النيوترونية ليست مضخة لرش المواد المبيدة للذباب .

بلغ تعداد الناس الذين ماتوا في الحربين العالميتين ستين مليونا من البشر . فلو بقي هؤلاءالملايين الستون على قيد الحياة لتكاثروا خلال السنوات الثلاثين ونيف ولبلغ تعدادهم مئتين من الملايين على الأقل . فلو أضفتم هذا العدد إلينا نحن الذين يضيق بنا هذا العالم لأصبح عالمنا الحبيب مكانا لا يطاق ويستحيل العيش فيه .

إن عالمنا الذي يعاني من النقص في كل شيء يعاني في الوقت نفسه من الزيادة في البشر ، في السكان . فهناك أعداد كبيرة فائضة عن الحاجة من الكائنات البشرية .

من المعلوم أن بعض المنتجات الفائضة عن الحاجة مثل الحبوب والبطاطا والبن وغيرها من المحاصيل الزراعية يلقى بها في المحيطات أو تحول الى طعام للنار بغية الحفاظ على أسعارها في السوق العالمية . ان ذلك هو السبب الكامن وراء قيام المؤسسات التجارية والمصرفية الكبيرة بتقديم التعويضات للمزارعين مقابل امتناعهم عن زراعة القمح مثلا ، وهذه التعويضات تساوي بل وتزيد عما كان المزارعون سيحققونه من أرباح فيما لو زرعوا أراضيهم . لن يكون القضاء على الناس الفائضين عن استيعاب العالم وحاجته مثلما يجري القضاء على المحاصيل الزراعية الفائضة كالبطاطا

والحبوب والبن عن طريق الحرق بغية الحفاظ على أسعارها المرتفعة في الأسواق العالمية ، صحيحا . لأن ذلك سيثير موجة كبيرة من الدعايات المعادية لنا . لذا فان أفضل التدابير وأكثرها حكمة هو الحفاظ على عدد سكان العالم محدودا ومتوازنا من خلال تقليصه بشكل طبيعي عن طريق الحروب الدورية المنتظمة .

هل هناك الآن بقعة واحدة في العالم لا يجري فيها اتخاذ الاجراءات الكفيلة بوقف تزايد السكان ؟ ... بل وهناك تدابير جدية تتخذ للجم الرغبات الجنسية لدى الناس بغية تحديد النسل ومنع ازدياد عدد السكان . بل وهناك أيضا أماكن تجري فيها عمليات غايتها تعقيم النساء والرجال ومنعهم من الانجاب . ان الحديث عن القنبلة النيوترونية التي تقتل البشر ولا تمس الحديد والصخر والخشب والاسمنت والقماش والحرير والمخمل بأي أذى ، وفي ظل مثل هذه الأوضاع ، على أنها نقيصة وجريمة ، ان مثل هذا الحديث يعني عجزا كاملا عن فهم ماهية الحضارة .

ليس الانسان الا مجموعة من الأرقام . فما هو الا أرقام : مقاس ياقة قميصه ، مقاس حذائه ، مقاس قبعته ، هاتفه ، سجله في التأمينات ، بيته ، ساعة الغاز والماء في بيته ، هويته وجواز سفره ، وسائط النقل التي يستخدمونها من باصات وحافلات وقطارات ، اضافة الى العديد من الأرقام الأخرى . اذا كانت تلك هي الحقيقة فتعالوا نقس الأمر المطروح بالأرقام أيضا : مات في الحربين العالميتين الأولى والثانية ستون مليونا من البشر . اذا كانت الحضارة الراهنة بحاجة الى ستين مليونا من البشر فما علينا

الا أن نخطط ، كما نخطط لزيادة انتاج القمح بنسبة معينة ، لتحقيق مثل هذه الزيادة في عدد السكان . فكل امرأة ورجل لهما خبرة في انتاج الأطفال يعرفان جيدا أن انتاج الأطفال أسهل بكثير وأشد امتاعا من صنع واشادة سائر المباني والمنشآت الحضارية .

اذا تهدم متحف فاننا نشيد متحفا مكانه . واذا مات ستون مليونا فاننا أيضا قادرون على انتاج ستين مليونا بل وأكثر من البشر الجدد والمفعمين بالحيوية والنشاط فأين تكمن المسألة اذن ؟

من الصعب جدا فهم رغبات أولئك الذين يعارضون القنبلة النيوترونية في الحقيقة . هل يريد هؤلاءأن تقضي القنبلة النيوترونية ، اضافة الى البشر الذين تقتلهم ، على سائر منجزات الحضارة من المتاحف والمخابر العلمية والآثار التاريخية الآبدة والمعابد الخالدة والمباني المدرسية والجامعية والمكتبات والمصانع جنبا الى جنب مع البشر ؟

ان معارضي القنبلة النيوترونية ينسون حقيقة أخرى . وهذه الحقيقة هي : لن نكون نحن المتحضرين ، نحن أصحاب الحضارة ، أبدا من الذين سيموتون من جراء انفجار القنبلة النيوترونية .

عزيز نيسين

مجلة الفنون التركية

- ٦ / ٣ / ١٩٧٨ -

[illegible] VANDRARI [illegible]

هذا الكتاب

مجموعة من قصص ومذكرات الكاتب التركي الكبير عزيز نيسن بأسلوبه الساخر والعميق المحبب إلى قرائه. نقلها الى العربية فاضل لقمان واختار لها هذا العنوان «عاش الوطن». من خلالها يقترب القارىء ليس فقط من أدب عزيز نيسن ولكن أيضا من سيرته الذاتية.

مشق ـ ص. ب ٤٦٤٨ ـ هاتف ٤١٥٠٨٩